

□ مجالس الأئمة عند الصوفية

obeikandi.com

المفهوم الرمزي لمجالس الأُنس:

لئن كانت ألفاظ اللغة العربية قوالبَ صبّ فيها الغواةُ ما ذكرناه من معانٍ في وصف الطبيعة، ومجالس الشرب وغيرها - فقد كانت ذات الألفاظ قوالب للصوفية أفرغوا فيها أحاسيسهم بعد أن سمّوا بمعانيها، وارتقوا بمفهوماتها، بحيث لم تعد الأماكن والبساتين والرياض وما يزينها من ضوءٍ نهاراً، ومن برق أو قمرٍ أو غيرهما ليلاً، ويجلّلها من غمام أو سحب ويُفاض عليهم منها من قطر أو غيث أو ندى، ويمتّع ناظرهم من نوافير وبركٍ وجداول ومياه، ويشنف آذانهم من سماع، ويحرك عواطفهم من جمال قيانٍ وغوانٍ وغلمان، ويهيج نفوسهم من مشموم وطيب، ويزيل همومهم وعقولهم وطمأهم من مشروب، ويحرك وجدانهم من طرب يعقبه رقص وعريضة وخلاعة - لم يعد كل ذلك، أو غيره ممّا يناسبه - هو ذات المعنى المراد للصوفية أو المقصد المنشود لهم. . ذلك لأن وجود الله، وجماله وجلاله، وكماله وكلامه، وحضرته وإبداعه - شغل الصوفية عن كل ما ذكرناه وغيره.

وقد عبّرت عن ذلك شهيدة العشق الإلهي فقالت:

كانت لقلبي أهواء مُفرّقةٌ فاستجمعت مُدراًئك العينُ أهوائى^(١)

وعبر غيرها أيضاً فقال:

ألا حظهُ في كلِّ شيءٍ رأيتهُ وأدعوه سرّاً بالمنى فيجيب
ملأت به سَمعى وقلبي وناظرى وكلّى وأجزائى فأين يغيب^(٢)

(١) مشارق أنوار القلوب ص ٨٥.

(٢) مشارق أنوار القلوب ص ١٠٧.

لقد كان العارفُ من هؤلاء ومايزال، إذا شاهد هذه الأنوار المودعة في هذه القوالب الكثيفة، ونقلها له البصر إلى الخيال، ثم جرّدها له الفكر من علائقها وأوضاعها الجسمية، وأوصلها إلى النفس الناطقة، فشهد بها في ذاتها بذاتها، وأتحدت بها، عرجت بها إلى محلّها الأعلى، وأفق جنبها الأقدس الأسنى، ولهذا نجد مَنْ عَشِقَ شخصاً حَسَنَ الصُّورَةِ الأدمية، تام المحاسن، ونقل محاسن ظاهره المجردة إلى نفسه الناطقة، ثم غاب ذلك الشخص عن بصره مُدَّةً، أو لم يغب ورآه بعد ذلك وقد ذهبت تلك المحاسن عن هيكله، وأفلت شمس الجمال عن طللك جسمه، فإنه لا يحنّ إليه كما كان أولاً، لأنه ينظر إلى نفسه فيجدُ فيها تلك المحاسن مصوَّرة على ما كانت عليه من الكمال، لم تتغير ولم تتبدّل، بل ألطف مما كانت عليه وأنسب إلى نفسه اللطيفة، ولم يبق في الخارج منها شيء فيقول:

﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ إِذَا الظَّالِمُونَ﴾ (٣).

. . . ويعلم حقيقة أنّ العشوق إنّما هو تلك الصورة المجردة الحاصلة عنده التي لا تقبل التبدّل ولا التغيّر - لا ما في الخارج، وإنّما كان جسم ذلك الشخص محلاً لها، وشرطاً في حصولها حيناً ما، وقد فارقت الآن، فيحب نفسه لما بها من صورة محبوبه الحقيقية، ويستغنى عن غيره، ويستريح من ألم الفارقة وعذاب البعد لتمكّنه في مقام الاتحاد. فهذه هي العلة التي لأجلها يهجر المحب أطلال الجسم إذا رحل عنها الحبيب فيقول:

بعْدَ التَّقَا وفراق جيران النّقى	لا أسرع الغورَ الغمامُ ولا سَقَى
وجفَّتْ عوادي المزن وادى ضارج	والمنحنى من بعدهم لا أورقَا
ما النّفع بالأطلال وهي عواطل	يَوْمًا إذا شَمِلُ الخليط تمزقَا

ومن لم يكن بهذه الحال، وانتقل من محبة شخص إلى شخص آخر، ولم يحصل له هذا المقصود، فقد ضيّع عمره، وشئت شمله وأتعب نفسه وشقى

(٣) سورة يوسف الآية ٧٩.

الشقاوة العظيمة، إذ المقصود الترقى إلى واجب الوجود لا التردد فى حضيض عالم الأجسام.. أعاذنا الله من ذلك.

وَأَضِيْعَةُ الْعُمُرِ لَا الْمَاضِيَ انْتَفَعَتْ بِهِ وَلَا حَصُلْتُ عَلَى عِلْمٍ مِنَ الْبَاقِي
يَفْنَى الزَّمَانَ وَأَمَالِي مَصْرَمَةً مَعَ مَنْ أَحَبَّ عَلَى مَطْلٍ وَإِمْلَاقٍ
قَدْ كُنْتُ مِنْ أَمَلِي مَحْبُوسَ وَصْلِكُمْ فَوْقَ الْهَجْرِ لِي مِنْكُمْ بِإِطْلَاقِي^(٤)

هذا وما قيل عن تفريق الحب بين الصورة المثلى المجردة عن الأجسام الحيوانية، وبين ما تحمل به عرضاً من صور خارجية - يُقال كذلك عن المعالم الطبيعية من بساتين ورياض ومياه وضياء، كما يُقال عن السَّماع وأدواته ومجالسه، وعمّا يُقدِّم فى تلك المجالس من مشروبات^(٥)... علماً بأنه كما تكتمل عند الغواة مثل ما ذكرناه^(٦) من صور حسية ملاذ الحواس الخمس^(٧) تكتمل بأقوى منها عند الصوفية - بنظائرها المعنوية ملاذ حواسهم فينعمون بجمال

(٤) مشارق أنوار القلوب ومفاتيح أسرار الغيوب لعبد الرحمن بن محمد الأنصارى المعروف بابن الدباغ، تحقيق هـ. ريتز، طبع دار صادر بيروت ص ١٠٨ / ١٠٩.

(٥) يفرق ابن الدباغ بين المعانى الذهنية للجمال الحيوانى، وبين غيرها، بما يفيد بأنه ليس فى الأخيرة معنى روحانى زائد على الجمية، مناسب للنفس الزكية [راجع مشارق أنوار القلوب ص ١١١].

(٦) راجع مجالس الأنس عند الغواة.

(٧) إشارة إلى ما قاله الصفى فى [نفحات الأزهار للنابلسى ص ٢١٠]:

ومجلس لذة أنسى دُجَاهَه	تضىء كأنه بدر منير
تجمع فيه مشموم وراح	وعيدان ووليدان وحوار
تَلَذَّذَتْ الحواس الخمس فيه	بخمس يُسْتَتَمُّ بها السرور
فكان الضمُّ قم اللبس فيه	وقم الذوق كاسات تدور
وللسمع الأغاني، والغواني	لِنَظَرِنَا وَلِلشَّمِّ الْخُورُ

هذا وكنا قد سجلنا نفس هذه الأبيات سابقاً، وقد أعدناها هنا لتشير إلى أن الشيخ النابلسى قال الآتى عمّا يجله الصوفية فى خمرتهم المعنوية من ملاذ:

بها للحواس الخمس، مناعت	فجمع ولمس ذوقنا بصرشم
وللعقل أيضاً لذة فى جمالها	وسرُّ بدا منها له وجب الكتم

راجع ديوان الحقائق ج ٢ ص ٨٧.

ذاتِ الله ويتذوّقون حلاوة خمرة محبته وأسراره، ويشمّون طيب معرفته،
ويتلذذون بنشوة سماع أرواحهم لخطابه لهم فى عالم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾،
ويتخذون من عالم الخلق مرآة تعكس وجود الخالق، فلا يبقى عندهم موجودٌ
سواه، وعندها تراهم وقد غشيهم ماغشى سيّدنا موسى من صَعَقَةٍ ومحوٍ وغيبةٍ -
يصيحون:

تبدّى لنا فى كل شىء حبيبنا فتنهنا كماتاه الكليم به عجبا
وما نحنُ إلاّ حجبه وهو سرُّنا ويفهم سرّ الحجب من فهم الحجبا (٨)

ويقولون:

أرى كل شىء لاح للعين مرآه أشاهد فيه وجه من أنا أهواه
فهل عاشق إلاّ لوجهك عشقه وهل نفسٌ إلاّ سرى منك رياه ؟
فلا ذاكرٌ إلاّ لأجلك ذكره ولا راحلٌ إلاّ لقصدك مسراه
ولا شىء إلاّ أنت فيه ممثّل مقيم وإنّ لآحت لعينى أشباه (٩)

ويقولون:

فلاتك مفتونًا بحسك معجبًا بنفك موقوفًا على لبس غرة
وفارق ضلال الفرق فالجمع مُنتج هدى فرقة بالاتحاد تحدّت
وصرّح بإطلاق الجمال ولا تقل بتقيده ميلا للزخرف زينة
فكلّ مليح حسنه من جمالها معارٌ له بل حُنّ كلّ مليحة
بها قيس بُنى هام بلّ كلّ عاشق كمجنون ليلى أو كُثير عزة
فكلّ صبا منهم إلى وصف لبسها بصورة حُنّ لاح فى حُنّ صورة
وماذاك إلاّ أن بدت بمظاهر فظنّوا سواها وهى فيهم تجلّت

(٨) مشارق أنوار القلوب ص ١٣ .

(٩) مشارق أنوار القلوب ص ٩١ .

بدت باحتِجَابٍ واختفت بمظاهر على صيغ التكوين فى كل برزة (١٠)
إنّ كلام الصوفية من منظوم ومثثور لا يفتأ يدور عن الله :

هو البحر عنه لا يزول كلامهم فعن موجه طوراً وطوراً عن الماء
وكلّ كلام قد أتى متكلّم به فهو منه عنه فى رمز أسماء (١١)

بناءً على كل ما تقدم، أذكر أنّ الصّوفية وقد أرادوا صرف العامة عن حبّ
الدنيا، وما فيها من متاع ولهو ولعب وزينة، رأوا أن يحدثوا الناس بما يفهمون،
فصبوا معانيهم الرمزية فى القوالب المألوفة للسّامعين، لبسنى لهم بذلك لفّت
أنظارهم، وتشويقهم إلى ما أرادوه لهم من مثل وقيم :

أماكن الشراب المعنوي:

هذا، وحيث أنّ الغواة قد أولعوا بذكر مجالس الشرب فى أشعارهم،
وماتضمه تلك المجالس من ملاء ومجون وغيرها، فقد اضطر الصوفية للإشارة
إلى تلك المجالس وغيرها، لامن المنطلق الشهوانى الذى انحدر إليه الغواة،
وإنّما من المنطلق العرفانى، والمفهوم القرآنى الذى أناره لهم المولى جلّ وعلا
بوصفه لمجالس الأنس فى الجنة؛ إذ ذكر ما فيها من سرر، وأرائك، ورفارف،
وفرش بطائنهما من إستبرق، وأشار لطريقة الجلوس فيها، حيث ورد: أنهم
يكونون على سرر متقابلين، لا يستدبر أحد منهم صاحبه ولا يعلو عليه (١٢).

ووصف سقاة الخمر من الولدان بجمال الصّورة، وجمال الزّى، وجمال
الزّينة، ووصف الخمر بما لم يصف به مشروباً آخر فى المذاق واللذة، فهى
بالإضافة إلى أنّها لذة للشّارين - هى ذات مزاج زنجبيلى أو كافورى، ولون

(١٠) التفسير القرآنى واللغة الصوفية فى فلسفة ابن سينا للدكتور حسن عاصى - طبع بيروت سنة ١٤٠٣هـ /

١٩٨٣م / المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ص ٣٥٣ / ٣٥٤.

(١١) ديوان الحقائق ج ١ ص ١٩ .

(١٢) التفسير الكبير ج ٢٩ ص ١٤٩ .

هذا بالإضافة إلى ما فى تلك المجالس من حُورٍ عَيْنٍ كأمثال اللؤلؤ المكنون، ولحم طيرٍ مما يشتهي المتأسون، وفاكهة يُطاف عليهم بها فى صحاف من ذهب يُسرُّ بأكملها المتنادمون. . وجوٌّ طيعى لا يرى فيه أولئك المترفّهون من ذوى النعيم والملك الكبير، والثياب السندسية، والأساور الفضيّة - لا يرون شمسًا ولا زمهريًا، دانية عليهم ظلالها وذلّتْ قُطوفُها تذليلًا.

﴿٤٥﴾ فِي جَنَّتِ الْعَيْمِ ﴿٤٦﴾ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَاسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿٤٨﴾ بِيَسَاءَ لَذَّةٍ
لِلشَّارِبِينَ ﴿٤٩﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَوْنَ ﴿٥٠﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْطَّرْفِ عَيْنٌ ﴿٥١﴾ كَأَنَّهُنَّ
بَصٌّ مُكْنُونٌ ﴿٥٢﴾ (١٤)

﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٤١﴾ فَيَأْتِيءُ الْآلَاءَ رَيْكُمَا تُكَذَّبَانِ ﴿٤٢﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٣﴾ فَيَأْتِيءُ الْآلَاءَ رَيْكُمَا تُكَذَّبَانِ ﴿٤٤﴾ فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيانِ ﴿٥٠﴾ فَيَأْتِيءُ الْآلَاءَ رَيْكُمَا تُكَذَّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِنَّ مِنْ كُلِّ فَرْكِمَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَيَأْتِيءُ الْآلَاءَ رَيْكُمَا تُكَذَّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى فَرَشٍ بَطَائِنُهُنَّ مِنْ أَسْتَرَفٍ وَحَى الْحَنَّتَيْنِ دَانَ ﴿٥٤﴾ فَيَأْتِيءُ الْآلَاءَ رَيْكُمَا تُكَذَّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَصِيرَتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئُنْهُنَّ إِنْ سُرُّ قِبَلَهُمْ وَلَا جَانٌ ﴿٥٦﴾ فَيَأْتِيءُ الْآلَاءَ رَيْكُمَا تُكَذَّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَاهِنُ اللَّيَالِقُوتِ وَالْعَرَاجَانُ ﴿٥٨﴾ فَيَأْتِيءُ الْآلَاءَ رَيْكُمَا تُكَذَّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلَ جِرَاءُ الْأِحْسَنِ إِلَّا الْأَحْسَنُ ﴿٦٠﴾ فَيَأْتِيءُ الْآلَاءَ رَيْكُمَا تُكَذَّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٌ ﴿٦٢﴾ فَيَأْتِيءُ الْآلَاءَ رَيْكُمَا تُكَذَّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدَهَا مِتَّانِ ﴿٦٤﴾ فَيَأْتِيءُ الْآلَاءَ رَيْكُمَا

(١٤) سورة الصافات - الآيات ٤٣ - ٤٩ .

تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عِصْيَانٌ نَضَاجَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَيَأْتِيَهُمَا رَيْبُ كَذِبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَتْكُهُمْ وَنُحْلٌ وَرُمَانٌ ﴿٦٨﴾ فَيَأْتِيَهُمَا رَيْبُ كَذِبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرٌ حَسَنٌ ﴿٧٠﴾ فَيَأْتِيَهُمَا رَيْبُ كَذِبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَيَأْتِيَهُمَا رَيْبُ كَذِبَانِ ﴿٧٣﴾ لَتَرِيظِيْنَهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ﴿٧٤﴾ فَيَأْتِيَهُمَا رَيْبُ كَذِبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَكِبِينَ عَلَى رَقَرٍ خُضِرَ وَعَبَقَرِي حَسَنٍ ﴿٧٦﴾ فَيَأْتِيَهُمَا رَيْبُ كَذِبَانِ ﴿٧٧﴾ نَبْرَكَ أَسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿١٥﴾ .

ويقول جل وعلا :

﴿ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَكِبِينَ عَلَيْهَا مُتَقَدِّمِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْفَوْنَ ﴿١٩﴾ وَفِي كَهْفِهِمْ ذَخَائِرُ مِنْ خَيْرِ ثَمَرَاتٍ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ الذُّلُولِ الْمَكُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿١٦﴾ .

ويقول عز وجل :

مُتَكِبِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَيْدِيهِمْ فَطُوفُوا فِيهَا نَذِيلًا ﴿١٤﴾ وَيَطَافُ عَلَيْهِمْ بِمِائِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَرُهَا أَنْفَادِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِنْ جِوَاهِرٍ زَبْجِيًّا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلُكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُسٌ خُضَرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوا بِأَسَاوِرٍ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿١٧﴾ .

(١٥) سورة الرحمن - الآيات ٤٦ - ٧٨ .

(١٦) سورة الواقعة - الآيات ١٥ - ٢٦ .

(١٧) سورة الإنسان - الآيات ١٣ - ٢١ .

الخلاصة:

أخلص من كل ما تقدم بأن مفهوم المكان والزمان وغيرهما من المحسوسات أو المعقولات - إنما يتعرف عليه الفرد إذا كان مالكاً لوعيه، مُدركاً لأفعاله، أما إن غاب عن إحساسه، وسكّر من الأنس بالله، وطرب من نشوة اللقاء به والتقرب منه، وصعق من مراقبة تجليات جلاله، ومظاهر عظمة ذاته، فإنه حينئذ يفقد الإدراك العقلي، والاهتمام الإنساني الذي يميز به بين مختلف المخلوقات:

فى مثل هذه الحال التى تتوحد فيها لدى العابد أهواؤه المتفرقة^(١٨) - يصير كلام الصوفى غير ما تُعطى العبارات:

كلامنا غير ما تعطى العبارات	من المعانى لنافيه اعتبارات
بنفسه قائم وهو المجرد عن	لفظ ومعنى معاً، وهو الإشارات
هما الكثيفان والسر اللطيف له	علاقة بهما فيها التفاتات
كالروح يظهر من نفس ومن جسد	وليس يكشفه إلا العنايةات
فلا تظن بأئى إن وصفت حلّى	شئ مرادى به تلك الإحالات
أو إن ذكرت نسيماً هبّ من جهة	أو نفحة، هى قصدى والمرادات
كذلك البرق والأطلال أذكرها	فى النظم ليست مرادى والحمامات
لا والذى جلّ عمّا للعقول بدا	وللحواس به الأحياء أموات
كلام أهل طريق الله سرّ هدى	لا دخل فيه لهم تبدييه أبيات
عن المواد له التجريد مخطئة	منك التآويل فيه والقياسات
لم يدره دو انتقاد فى تعنته	لنفسه زعم علم واجتهادات

(١٨) إلى مثل ذلك يشير قول رابعة العدوية [مشارك أنوار القلوب ص ٨٥]:

كانت لقلبي أهواء مُفرقة	فاتجمعت مُذرائك العين أهوائى
وصار يخدنى من كنت أحسده	وصرت مولى الورى مذ صرت مولائى
تركت للناس دنياهم ودينهم	شغلاً بحبك ياديني ودينائى

فيعرب اللفظ للمعنى فيفهمه ولا يبين له إلا الضلالات
ومقصد القوم نور فى القلوب سرى من القلوب وما فيه التباسات
رموز أسرار قوم تستعد له أرواح قوم لهم فى الله راحت
روائح القوم شمتها بصائرهم لهم إلى الحق همت ورغبات
لهم نظمنا المعانى يلمحون بها غيب الغيوب وتخفيها العبارات (١٩)

على ضوء ما تقدّم من مفهوم، أشير فيما يلى إلى بعض ماورد عن الصّوفية
من أشعار، ظاهرها وصف مجالس الأنس والطبيعة وغيرها، وباطنها غير ماتعطى
العبارة، ويدل عليه الأسلوب، ويحتويه قاموس اللغة.

١ - بيوت الله:

بيوت الله هى المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا
أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ
الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ
أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .
[سورة النور الآيات من ٣٦ - ٣٨].

هذا هو المعنى الحقيقى أو الاصلى لبيوت الله، أما المعنى المجازى - ومثله
الغيبى - لنفس البيوت فيمثله ما ورد من أن القلب بيت الرب، وأنه لم تسع
المولى أرضه ولا سماؤه وإنما وسعته قلب عبده المؤمن.

المفهوم الرمزى للفظ البيت عند الصوفية:

هذا والصّوفية وإن استعملوا لفظ البيت بمعناه الحقيقى تارة، فقد استعملوا
نفس اللفظ بمعنى غيبى ومجازى تارة أخرى.

(١٩) ديوان الحقائق ج ١ ص ٩٥ / ٩٦.

وقد ورد عنهم في ذلك ما يلي:

تجرّد عن الأغيار في القول والفعل وبعّد شتات القلب في القرب والوصل
وطهر بيوت الله من كلّ صورة فما البيت إلا القلب إن كنت أغفل^(٢٠)

ويقول آخر:

فهي خمرة الأفراح لما شربتها نظرت إلى الأملاك والبدر والشمس
وغيت أشعاراً على كُنك عودها وكأس الهوى يجلى وقد طال لي عرسي
فطوراً ترانى عالماً متفقّها وطوراً ترانى راهب الدير والقس
وطوراً ترانى في المساجد عاكفاً أصلى وأقرأ في الخفاء وفي الحس^(٢١)

ويقول غيره:

وهل أمّ بيت الله يا أمّ مالك عريب لهم عندي جميعاً صنائع^(٢٢)

ويقول غيره:

تبكي المساجد من توديعه أسقفاً على الفراق ومن وجد لها حصلاً^(٢٣)

ويقول غيره:

لا أوحش الرحمن منك مساجداً معمورة بتواجد وهيام^(٢٤)

ويقول آخر:

تبكي المساجد أحزاناً لفرقتها ما بالكم قلبكم كالصخر مالاناً^(٢٥)

ويقول غيره:

سرى بليل سارا * لاقى به أنوارا * يعلو به الأقمارا

من طلعة العدنان

(٢٠) قاموس الأنشيد ص ٤٠٢ .

(٢١) قاموس الأنشيد ص ٤٨٩ .

(٢٢) قاموس الأنشيد ص ١٥٥ .

(٢٣) قاموس الأنشيد ص ٣٤١ .

(٢٤) قاموس الأنشيد ص ٣٤٢ .

(٢٥) قاموس الأنشيد ص ٣٤٤ .

وافى بيت القدس * فى العز ثم الأُنس * بكل فصل يُسمى
سمو على الأكوان^(٢٦)

ويقول سيدى الشيخ قريب الله:

محمد المصطفى خير الوجود ومن أسرى به الله ليلاً وهو مقتدر
من الحرام إلى الأقصى وخادمه جبريل ميكال إسرافيل فاعتبروا^(٢٧)

ويقول غيره:

نبى كريم رءوف رحيم له بين كل الأنام احتشام
به الله أسرى إلى القدس ليلاً من البيت وهو المحل الحرام^(٢٨)
ويقول سيدى الشيخ قريب الله:

أيا سارياً بالليل والليل مظلم أفدنى أين القوم يا صاح خيموا
نعم خيموا بالقلب والقلب بيتهم فطهره للكنى إذا كنت تفهم^(٢٩)
ويقول ابن عربى:

يا أيها البيت العتيق تعالى نور لكم بقلوبنا يتللا^(٣٠)

٢ - الخلوة أو العزلة:

الخلوة لفظ مفرد جمعه خلوات، وهى فى الأصل مكان الاختلاء^(٣١)، غير

(٢٦) قاموس الأنشيد ص ٣١٨.

(٢٧) رشقات المدام ص ١٩٨.

(٢٨) قاموس الأنشيد ص ٣٢٢.

(٢٩) رشقات المدام ص ٣١٥ القصيدة رقم ٤٧٠.

(٣٠) ذخائر الأعلام ص ١٥٨.

(٣١) المنجد.

أنها باستعمال الصوفية لها اكتب معنى خاصاً مقصوراً على اختلاء العبد
بمولاه أو لمولاه، استناداً إلى عدة أدلة، منها:

قوله تعالى:

﴿وَأَعِزِّ لَكُمْ وَمَا نَدَعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي﴾ (٣٢).

وقوله تعالى:

﴿فَلَمَّا أَعِزَّهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ (٣٣).

وقوله تعالى:

﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا إِلَى فَاَعِزُّونَ﴾ (٣٤).

وقوله تعالى:

﴿وَإِذْ أَعَزَّ لَتَمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهُ فَأَوَّاهُ إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ
وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَاقًا﴾ (٣٥).

وقوله تعالى:

﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٣٦).

وقوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٣٧﴾ يَوَلَّى
لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانَا خَلِيلًا﴾ (٣٧).

(٣٢) سورة مريم - الآية ٤٨.

(٣٣) سورة مريم الآية ٤٩.

(٣٤) سورة الدخان الآية ٢١.

(٣٥) سورة الكهف - الآية ١٦.

(٣٦) سورة الذاريات - الآية ٥٠.

(٣٧) سورة الفرقان - الآيتان: ٢٧ و ٢٨.

وقوله عليه السلام:

«خير الناس مَنْ يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله، ثم رجل يعبد الله في شُعب من الشُّعاب ويدع الناس من شره» (٣٨).

وقوله:

«أحبّ النَّاس إلى الله تعالى الفرَّارُون بدينهم، يبعثُهم الله مع عيسى بن مريم يوم القيامة» (٣٩).

وقوله: «إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْعَبْدَ التَّقَى الْغَنَى الْخَفَى» (٤٠).

أنواع الخلوة:

قسَّم العلماء الخلوة إلى ماأتى:

١ - الخلوة الظاهرة: وقد عنوا بها اختلاء السَّالِك في بيت خال من النَّاس وقعوده فيه ليحصل له اطلاع في عالم الملكوت، لأنَّ الحواسَّ الظَّاهرة متى احتبت عن أحكامها - انطلقت الحواسَّ الباطنة لمطالعة آيات الملكوت.

٢ - الخلوة الباطنة: أو الخلوة في الجُلُوة؛ وقد عنوا بها استيلاء الذكر على حقيقة القلب، أو استيلاء النِّبَة العلية، بحيث لا يُنافيها مَعِيَة الخلق، وتَضَرُّها المعاملة معهم (٤١).

أصحاب الخلوة:

أصحابُ الخلوة ثلاثة أنواع:

النوع الأول: السالِك لله، وهو المنفرد عن الخلق، المنعزل عن الناس، إِيثَاراً

(٣٨) إحياء علوم الدين باب العزلة.

(٣٩) إحياء علوم الدين باب العزلة.

(٤٠) إحياء علوم الدين باب العزلة.

(٤١) المنهج الصوفي في التربية والدعوة إلى الله، لسيدى الفاتح الشيخ قريب الله - طبع دار الجليل بيروت سنة

١٤١١هـ / ١٩٩١م - ص ٦١ / ٦٤. وراجع أيضاً عن مفهوم الخلوة والعزلة وأنواعها وغيرها: الفتوحات

الإلهية لابن عجيبة ج ٢ ص ١٦٠.

منه الله على مخلوقاته، إذ مَنْ خَالَطَ النَّاسَ دَارَاهُمْ، وَمَنْ دَارَاهُمْ رَأَهُمْ، وَمَنْ رَأَهُمْ نَافَقَهُمْ، وَمَنْ نَافَقَهُمْ اسْتَحَقَّ الدَّرْكُ الْأَسْفَلُ مِنَ النَّارِ.

النوع الثاني: المحقق بالله.. وهو مَنْ لَا وَصْفَ لَهُ وَلَا ذَاتَ، وَلَا حَيْطَةَ تَحُوطِهِ مِنَ الْكَائِنَاتِ.. إِنَّهُ الْفَانِي فِي حَبِّ اللَّهِ، الْمُسْتَغْرَقُ فِي جَلَالِ اللَّهِ، الْبَعِيدُ عَنْ دَائِرَةِ الْأَكْوَانِ الْحَيْطَةِ، النَّاسِي لِلذَّاتِ الْبَشَرِيَّةِ، الْهَائِمُ فِي سُبُوحَاتِ الْأَنْوَارِ الْإِلَهِيَّةِ، الْمُنْفَرِدُ لِلَّهِ وَبِاللَّهِ، الَّذِي لَا يَشْغَلُهُ الْغَيْرُ عَنِ اللَّهِ.

النوع الثالث: العارف بالله.. وهو مَنْ يَغِيبُ عَنِ الْأَثَارِ بَرُوءِيَّةَ الْمُؤَثَّرِ، وَيَصِيرُ - وَإِنْ كَانَ مُصَاحِبًا لِلنَّاسِ بِجِسْمِهِ - فِي خُلُوعٍ عَنْهُمْ بِرُوحِهِ^(٤٢).

نماذج مما جاء من آثار عن الاستعمال الرمزي للفظ الخلوة والعزلة:

جاء عن لفظ الخلوة والعزلة بالله ولله ما يأتي:

يقول ابن عربي:

وحشية ما بها إنسٌ قد اتخذت في بيت خلوتها للذكر ناووسا

هذا ومما جاء في معنى البيت: أن الشاعر كنى بالبيت عن قلبه وخلوتها فيه نظرها إلى نفسها، فإن الحق يقول: «ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن».. علماً بأنه لما كان هذا القلب الذي وسع هذه الحكمة الذاتية العيوية في مقام التجريد والتنزيه كان كالقلاة، وكانت فيه كالوحش.. ومن ثم ذكرها بحال الفراق ليزهدها في اتخاذ الألفة، ذاكرًا لها لفظ «الناووس»، وهو قبر من رخام كان قد اتخذ مدفناً للملوك الروم^(٤٣).

(٤٢) المنهج الصوفي في التربية والدعوة إلى الله ص ٥٧ / ٦١.

(٤٣) ذخائر الأعلاق ص ١٥.

ويقول بعض العارفين:

طاب شراب المدام فى الخلوات فاسقنا يانديم فى الآنيات
خمرة تركُّها علينا حرامٌ ليس فيها إثم ولا شبهات (٤٤)

ويقول آخر:

فراحى بكر لاثشابُ بريبةٍ وقد جُلِّتْ فى الكأس ليلاً بخلوةٍ (٤٥)
ويقول سيّدى الشيخ قريب الله:

يا عزلةً فيها الهنا والأُنس بالله العلى
أنت الحياة لقلبنا منك البصائر تنجلي
ياليت عمري كله فيك انقضى ياليت لى
عزماً على ترك الموى وإنابة المـترسل
وسياحةً ونياحةً شوقاً إلى الله الولي (٤٦)

ويقول غيره:

إذا اجتمعوا فى خلوة الذكر فى الدُّجى بمقعد صدقٍ والزجاجات دائره
ترى أعين العشاق نحو جيبهم إلى ذلك الوجه المقدس ناظره (٤٧)

٣- الحانة:

الحانة فى الأصل موضع بيع الخمر الحسى، وجمعها (الحان)، مثلها فى ذلك مثل: حاجة وحاج، وساعة وساع؛ على أن المعنى الرمزيّ لها عند الصوفية يفيد الإشارة إلى كلِّ شَيْءٍ، انطلاقاً من أن المراد من الخمر الكِنَايَةُ عن الوجود الحقّ

(٤٤) قاموس الاناشيد ص ٢٠٤.

(٤٥) قاموس الاناشيد ص ٢٧٨.

(٤٦) رشقات المدام ص ٢٩٠.

(٤٧) قاموس الاناشيد ص ١٩٨.

الواحد الأحد، الذى له ظهور وتجلٍ وانكشاف بتقدير كلِّ شيء وتصويره،
فكأن كلَّ شيء حانة على الاستقلال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، كما أنَّ
﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (٤٨) . . وفق هذا المفهوم وردت النماذج الآتية:

يقول النابلسي:

قوموا اسكروا ياقوم فى حانتى فالليل فيه ضوء نبراس (٤٩)
ويقول النابلسي:

وبتُ فى ثرى حاناتها متلففاً بأثواب ذلٍّ فى هواها بها تسمو (٥٠)
ويقول النابلسي أيضاً:

قم للمدام أخا الغرام وطُف بنا فى كلِّ حان (٥١)
ويقول أيضاً:

هى الحانات والكاسات تُملئ	فنسقيها القلوب الآمنينا
وتكشف وجهها لرجال صدق	محارمها وليسوا أجنيينا
عصابة وحدة كانوا بخبث	فجاءونا فصاروا طاهرينا
يظل يسوقهم ساقى الحميا	إلى حان الطلاحينا فحيناً (٥٢)

ويقول آخر:

سكرت بخمر الحبِّ فى حان حبِّها وفى خمره للعاشقين منافع (٥٣)

(٤٨) شرح ديوان ابن الفارض ج ٢ ص ١٧٩ / ١٩٤ والآيتان المذكورتان هما الآية ٨٨ من سورة القصص،

والآية رقم ٢٦ من سورة الرحمن.

(٤٩) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٧١.

(٥٠) ديوان الحقائق ج ٢ ص ٨٧.

(٥١) ديوان الحقائق ج ٢ ص ١٢٣.

(٥٢) ديوان الحقائق ج ٢ ص ١٧١.

(٥٣) قاموس الأنشيد ص ١٦٣.

ويقول آخر:

طاب السّماع وهبّت النّسمات وتواجدت في حانها السّادات (٥٤)

ويقول النابلسي:

زرّ بنات القسوس في ديرهنّ وارتشف خمرهن من يدهنّه
وادخل الحان حان وصلك للغيد اللواتي أعربن في لحنهنّه (٥٥)

ويقول أيضاً:

هذه الكائنات أم هي حانّه أسكرتنا كئوسها الملائّة (٥٦)

ويقول أيضاً:

هات حدّث أيا نديم عن سناطلعة الحبيب
وأدرّ خمّرنا القديم كأسها يكر اللّيب
ذاب في حانها الكلّيم وبها عبدها منيب (٥٧)

ويقول غيره:

فبادر إلى الحانات نحو دنانها وعلّ لها الزنّار وأصبح كما تُسى (٥٨)
ويقول ابن الفارض في التّائية الكبرى:

فبي مجلس الأذكار سمعُ مطالع ولى حانة الخمارعين طليعة (٥٩)

(٥٤) قاموس الأناشيد ص ١٩٣ .

(٥٥) ديوان الحقائق ج ٢ ص ١٨٦ .

(٥٦) ديوان الحقائق ج ٢ ص ١٩١ .

(٥٧) ديوان الحقائق ج ٢ ص ٢٣٣ .

(٥٨) قاموس الأناشيد ص ٤٨٩ .

(٥٩) قاموس الأناشيد ص ١٠٤ .

ويقول آخر:

قم وبادرْ لحاننا بخضوع وتمتّع بِحُثْنًا يا مُعْنَى (٦٠)

ويقول غيره:

دعيت لحانكم فسقيتموني بكأسٍ نشره مسك يفوح (٦١)

ويقول غيره:

قد راق فى حان الوفا مشروبهم ولهم أباح وصاله محبوبهم
صوفية تبدى الشهود غيوبهم صافاهم فصفواله فقلوبهم
فى نوره المشكاة والمصباح (٦٢)

ويقول آخر:

اسقنى فى الحان راحى فهى روحى وارتياحى (٦٣)

ويقول آخر:

وتهتك فى الحان بين الندامى إن أردتَ الوصال والقرب منى (٦٤)

ويقول غيره:

ولو شاهدتُ عيناك أنوارَ حانها تركتَ ملامى والأنامُ هواجع (٦٥)

ويقول غيره:

فدخلنا لحانها وشربنا من شراب ونعم هذا الشراب (٦٦)

(٦٠) قاموس الأنشيد ص ٢٢٠.

(٦١) قاموس الأنشيد ص ٢٣٧.

(٦٢) قاموس الأنشيد ص ١١٢.

(٦٣) قاموس الأنشيد ص ٢٥٥.

(٦٤) قاموس الأنشيد ص ٢٦٠.

(٦٥) قاموس الأنشيد ص ٣٧٧.

(٦٦) قاموس الأنشيد ص ٣٩١.

ويقول غيره:

يا فقيه لو ريت الحان والكأس يدور والندامى والإخوان شبه البدور
كنت تعذرني يا صاح على الخمر كنت تشرب من الجرما هو شوى^(٦٧)

ويقول غيره:

ادخلوا حان اتصالى تسمعوا منى خطابا
صنّ جمالاً قد تغالى وسنا أضحى مهابا^(٦٨)

ويقول غيره:

نحن فى الحان حضرنا بعد كسر فجبرنا^(٦٩)

ويقول غيره:

دخلنا الحان والكاسات تجلى ظننا أن فى الكاسات نارا^(٧٠)

ويقول غيره:

وبه رجال الله راق مدامهم فتمايلوا طرباً بحضرة غافر
فكانه للقوم حان خلاعة ما بين صاح منهمو أو ساكر^(٧١)

ويقول النابلسي:

وهم الحان والدنان وكاسا ت الطلا والديار والأبواب^(٧٢)

ويقول أيضاً:

يا نديمى بحانة الغيب إن الغيب كالعين لم يزل نضاً خا

(٦٧) قاموس الأنشيد ص ٤٣٧ .

(٦٨) قاموس الأنشيد ص ٤٣٩ .

(٦٩) قاموس الأنشيد ص ٤٤٢ .

(٧٠) قاموس الأنشيد ص ٤٦١ .

(٧١) قاموس الأنشيد ص ٤٧٤ .

(٧٢) ديوان الحقائق ج ١ ص ٣٦ .

فأَمْلَأُ الكاسَ لى ولا تترنّم بسوى مَنْ به السّوى فيه ساخا^(٧٣)

ويقول أيضاً:

هى الحانات والكاسات والطاس والطلّا ودنّ الحميا والذى صنع الدنّا^(٧٤)

ويقول أيضاً:

هَذَا حَانِى
مَنْ يَلْحَانِى
جمع القوم السّكارى
ليس يدرى حسن ذاتى^(٧٥)

ويقول سيدى الشيخ قريب الله:

هذه الحانات * أحيتِ الأموات * هات منها هات * يا إمام القوم^(٧٦)
٤ - الدير:

الدير جمعه: أديرة، وديورة، وأديار^(٧٧)، وهو فى الأصل مكن الرهبان،
وقد جاءت الإشارة إليه فى الأشعار الصوفية بما يفيد الحضرة الإلهية . . وعن
ذلك ورد ما يأتى:

يقول سيدى النابلسى:

جَرَّدَ فؤادك عن الأغيار طار الطير فى حُبِّ لىلى فلا تدخل عليها الدير
هيهات لست تَرَاهَا يا قليل الخير بالعين تلك التى تنظر بها للغير^(٧٨)

(٧٣) ديوان الحقائق ج ١ ص ١٣٦ .

(٧٤) ديوان الحقائق ج ٢ ص ١٢٠ .

(٧٥) ديوان الحقائق ج ١ ص ٩١ .

(٧٦) رشقات المدام ص ٣٢٠ ، هذا وللمزيد من النماذج عن (الحان) يمكن مراجعة ديوان الحقائق للنابلسى ج

٢ ص ١٧١ / ١٨٦ / ١٩١ / ٢٣٣ / وج ١ ص ٣٥ / ٣٦ / ٤٠ / ١٢٧ / ٢٦١ / ٢٦٩ / ٢٧١ / ٣٥٩

ورشقات المدام ص ٢٩ / ٨٤ / ٨٨ / ١٥٩ / ٢٠٤ / ٢١٨ / ٣٢٠ / ٣٢٤ / ٣٦٨ / ٣٧٦ / ٣٩١ .

(٧٧) المنجد مادة (دار) (رقم ٤ تدوير).

(٧٨) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٤٣ .

ويقول أيضاً:

طرقتُ دَيْرَ الهوى دارتُ دوائره
نفوس أغيار عين فى برانسها
حتى نظرتُ بعَيْنِ العين فانكشفت
على الرهابين فيه والقساقيس
مزخرفات كأذنب الطواويس
موتى الشماميس منها فى النواميس^(٧٩)

ويقول:

فتحوا باب ديرها فشممنا
وسكرنا براهب الدير لما
نفحة المسك من فم الشماس
هبّ منها معطر الأنفاس^(٨٠)

ويقول غيره:

وقد لاح ركب يعموا الدَيْرَ والحمى
ولما طرقتنا الدَيْرَ وهو إشارة
إلى منبع الخمر العتيق بسرعة
ودائرة للسالكين بحضرة^(٨١)

ويقول:

سكنتُ ديرها الأكابر منّا
وانجلي كأسها على كلّ ملهم^(٨٢)

ويقول النابلسي:

وادخُل كنيسة دِيرها
واعكف على بنت الدنان^(٨٣)

ويقول أيضاً:

بالله يا بارئ الأسرار قف نفساً
فالكون نور ومن يلهو يرى غلساً

(٧٩) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٦٦.

(٨٠) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٧٠.

(٨١) قاموس الأناشيد ص ٣٥٥.

(٨٢) ديوان الحقائق ج ٢ ص ٧٣.

(٨٣) ديوان الحقائق ج ٢ ص ١٢٣.

أَنْى أَرَدْتَ الْهَدَى خَذْ مِنْهُ لِي قَبْسَا
وَاحْطِطْ رَحَالِي بِيَابِ الدَّيْرِ مُلْتَمِسَا رَاحًا فَقِيُومَ ذَاكَ الدَّيْرِ لِي دَانِي (٨٤)

ويقول غيره:

فَاشْرَبْ وَغَبْ عَنْكَ وَاعْزِلْ عَزْلَ مَنْعَزِلْ عَمَّا حَيَّيْتَ وَلَا زِمَ حَانَ خَمَّارِ (٨٥)
ويقول النابلسي:

زُرْ بَنَاتِ الْقَسُوسِ فِي دَيْرِهِنَّ وَارْتَشِفْ خَمْرَهُنَّ مِنْ يَدِهِنَّ (٨٦)
ويقول غيره:

هَنِيئًا لِأَهْلِ الدَّيْرِ فِي حَضْرَةِ الْقُدُسِ بِشَمْسٍ جَلَّتْ أَنْوَارُهَا ظِلْمَةَ الشَّمْسِ (٨٧)
ويقول الشيخ قريب الله:

سَعِدْتُ مَنْ أَتَى اسْقَنَى كَأْسَهَا دَيْرَهَا يَا فَتَى اسْقَنَى كَأْسَهَا (٨٨)
ويقول النابلسي:

شَرَفَ الْهَوَى أَنَا رَاهِبٌ فِي دَيْرِهِ
وَأَنَا الَّذِي عِنْدِي مَطَالِعُ خَيْرِهِ
وَالْحُبُّ عَنِّي حَيْثُ جَدَّ بَيْرِهِ
لَمْ أَبْكِهِ لَكِنْ بِرُؤْيَا غَيْرِهِ طَهَّرَتْ أَجْفَانِي بِفَيْضِ دُمُوعِي (٨٩)

(٨٤) ديوان الحقائق ج ٢ ص ١٥٢ .

(٨٥) قاموس الأناشيد ص ٤٧٠ / ٤٧١ .

(٨٦) ديوان الحقائق ج ٢ ص ١٨٦ .

(٨٧) قاموس الأناشيد ص ٤٨٩ .

(٨٨) رشقات المدام ص ٤٠٣ .

(٨٩) ديوان الحقائق ج ١ ص ٣١٧ .

ويقول آخر:

وسارت بى إلى دير التّصارى فشاهدتُ الرجال بها سكارى
بغير الخمر بل من فرط حب (٩٠)

ويقول النابلسى:

ديرُ سمعان نشأتى درت فيه أبتغى كأسَ خمرة العنقود (٩١)

ويقول الشيخ قريب الله:

أمّ ذو التهليل * ديرها فى اللّيل * سائراً كالسيل * يطلب الأرباح (٩٢)

ويقول غيره:

من لى سواك أحبه أو أعشق
ولكل حُسن أنتَ روح وجوده
ما القد ما الطرف الكحيل وما اللّمي
وجميع ما فى الكون من مستحسن
رقت حواشى الحُسن فيكَ فأهله
من مات فى دير الهوى بك صبوّة
ولك الملاحاة والجمال المطلق
وعليه من معنى بهائك رونق
لولاك تُشهد فى حلاه وترمق
فإليك نسبته وباسمك ينطق
قتلى هواك وكلهم لك يعشق
نال الشهادة وهو حى يُرزق (٩٣)

ويقول غيره:

يرى عند دير الحب بين أحبة ويرشف كأس النور من دون خمرة (٩٤)

ويقول الشيخ نجم الدين بن إسرائيل:

روح فؤادى بذكر النازح الدانى فذكره لم يزل روحى وريحانى

(٩٠) قاموس الأناسيد ص ٤٢٩ .

(٩١) ديوان الحقائق ج ٢ ص ٢٤٣ .

(٩٢) رشفات المدام ص ٨٤ .

(٩٣) مشارق أنوار القلوب ص ٥٧ .

(٩٤) قاموس الأناسيد ص ٣٦٨ .

فدنتها من جناب العز أد نانى
راحاً فقيوم ذاك الدير لى داني (٩٥)

وعليه من نورها أثواب (٩٦)

نوره الشعشاع باهى (٩٧)

حتى زجرنا لدى حاناتها العيسا (٩٨)

أثمرت حبه بطيب غراس
لا إلى راهب ولا شماس (٩٩)

يحتسى من لقائها الا سفنطا
من بحار الجمال يسكن شطاً (١٠٠)

وحت لها منى المطية بالسير (١٠١)

واصرف همومى بصرف من مدامته
واحطط رحالى بباب الدير ملتماً

ويقول الشيخ عبد الغنى النابلسى:

قام شماس ديرها يتمشى
ويقول أيضاً:

هب لراعى الدير يفتح
ويقول أيضاً:

عجنا على ديرها والليل معتكراً
ويقول أيضاً:

إن لله فى الغيوب قلوباً
دخلت دير عشقه فاستقلت
ويقول أيضاً:

دخل القلب دير عشق سليمى
فرأى ثم نورة طالعات
ويقول سيدى الشيخ قريب الله:

بحقك وجهنى إلى ساحة الدير

(٩٥) ديوان الحقائق ج ٢ ص ١٥٢ .

(٩٦) ديوان الحقائق ج ١ ص ٣٥ .

(٩٧) ديوان الحقائق ج ١ ص ٣٩ .

(٩٨) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٦١ .

(٩٩) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٦٩ .

(١٠٠) ديوان الحقائق ج ١ ص ٨٨٨ .

(١٠١) رشفات الدام ص ١٩٦ .

ويقول أبو الحسن الششتري تلميذ عبد الحق بن سبعين:

تأدب بباب الدير واخلع به نعلًا وسلّم على الرهبان واحفظ بهم رحلاً^(١٠٢)

٥ - البيعة:

البيعة: لفظ مفرد، جمعه بيع وبيعات، ومعناها فى الأصل المعبّد الخاص بالتّصارى واليهود - وهى تقابل عند المسلمين مفهوم المجد الجامع . . علماً بأنّه كما يتخذ المسلمون من مساجدهم أماكن مفضّلة لتلاوة كلام الله، فكذلك يفعل التّصارى واليهود، ممّن ورد عن عبّادهم قوله تعالى: ﴿ تَرَنُّهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾. [سورة الفتح : من الآية ٢٩].

وفق هذا المعنى القرآنى يقول ابن الفارض فى التائية الكبرى:

وإن نار بالتنزيل محراب صّجدٍ فما بار بالإنجيل هيكَل بيعة^(١٠٣)

والمعنى الرمزي للبيت فى إطار ما سبقه وأعقبه من بيوت: أنّ الهدى هدى الله، والتوفيق توفيقه، وأنّه كما أنار المسلمون قلوبهم بالذكر والتلاوة، فكذلك فعل من سبقوهم من أهل الإنجيل، إذ عُنوا بقلوبهم وطهروها، فنجوا بما فعلوا من الهلاك، وابتعدوا عن غضب الله وسخطه:

ويقول ابن عربى:

فأرقبُ أفلاكًا وأخدمُ بيعةً وأحرسُ روضاً بالربيع منمنما^(١٠٤)

(١٠٢) رد المفتى عن الطعن فى الششتري - ورقة ٤٢ من المجموع لعبد الغنى النابلسي - مخطوط بالظاهرية بدمشق.

(١٠٣) قاموس الأناشيد ص ١٠٤.

(١٠٤) ذخائر الأعلاق ص ٥٢، وفيه أن البيعة هى المعابد السريانية العيوية من مقام الكلمة والروح.

٦ - الهيكل:

الهيكل: مفرد وجمعه هياكل، والمعنى فى الأصل موضع فى صدر الكنيسة يُقَرَّبُ فيه القربان، غير أنّ الصّوفية - وقد استعملوه - عَنوا به أمراً رمزياً يشير إلى امتزاج أنوار الظرف بالمظروف، أو القلب بالعبادة.

وقد ورد عن ذلك مايلى:

يقول الشيخ عبد الغنى النابلسى، وهو يخمس أبيات الشيخ نجم الدين بن إسرائيل:

شمس المعانى بأفلاك العلى بهرت
وقصةُ العشق فى أهل الهوى اشتهرت
والحسن أحكامه بين الورى قهرت
ولى بهيكله محجوبة ظهرت^(١٠٥) من بعدما خفيت عني بجسماني

وقد يعنون بالهيكل الجسد، وعنه يقول السهروردى:

خلعت هياكلها بجرعاء الحمى
وصبت لمغناها القديم تشوّفاً^(١٠٦)
ويقول غيره:

ولمّا إلى أنوارها قد توجّهوا
بدهيكل من مزجها برقيقة^(١٠٧)

٧ - الكنيسة والصومعة:

سبق أن تحدثت عن أصل لفظ الكنية ومفهومها، وذكرت طرقاً من تاريخها^(١٠٨)، وأضيف هنا أنّه لمّا كانت الكنية فى بداية ميرتها مكاناً

(١٠٥) ديوان الحقائق ج ٢ ص ١٥٢ / ١٥٣.

(١٠٦) السهروردى: لسمى الكيال ص ٩٤.

(١٠٧) قاموس الأناسيد ص ٣٥٦.

(١٠٨) راجع ما تقدم عند الحديث عن الكنيسة فى شعر الغواة.

للعبادة، تخلى فيه أصحابه عما سوى الله، وآثروه هو على كل ما عداه، فقد استعمل الصوفية نفس اللفظ ليرمزوا به إلى أصل الهدف فقالوا:

ووافوا إليها عند بيتٍ عن السوى نخلّى فيُدعى عندهم بكنيسة^(١٠٩)

هذا والصوفية حين يذكرون لفظ الكنية أو الصومعة وما فيهما من عبادة ورهبان، وما يقوم به هؤلاء وأولئك من عكوف على ما يرضى الله مع التزام بالوحي والشرعية وصفاء الباطن - إنهم حين يفعلون ذلك إنما يرمزون بما ذكروا إلى التزام العابد لعبادته، وارتباط قلبه بكل ما يجمعه بأهل دينه، ليتنافس الجميع في محبة الله ورضوانه، والتذلل لربوبيته. . وهذا هو معنى قول النابلسي:

نأتى الكنائس والرهبان قد عكفوا لدى الصوامع يدعون النواميس^(١١٠)

٨- المنازل:

المنزل لفظ مفرد، جمعه منازل، ومعناه في الأصل الدار والمنهل، أو مكان النزول. . علماً بأن الصوفية استعملوا ذات اللفظ في عدة معان رمزية، منها الحضرة الإلهية والقلب، وعنوا بالمنازل كذلك المقامات التي ينزلها العارفون بالله في سيرهم إلى مالا يتناهى من علمهم بمعبودهم^(١١١).

وقد ورد عنهم في ذلك ما تمثله النماذج الآتية:

عرجواي على منازل سلمى علّ أن أشتفى برشف لماها
كم أوري بذكر سلمى وقلبي ليس يصبو لغير من أهواها^(١١٢)

ويقول آخر:

وجدى على تلك المنازل باقى زادت إلى سكّانها أشواقى^(١١٣)

(١٠٩) قاموس الأناسيد ص ٣٥٦.

(١١٠) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٦١. هذا والنواميس مفردتها: ناموس، وهو صاحب السر، المطّلع على باطن الأمر، يقال: فلان ناموس الأمير، أى صاحب سرّه؛ ومعنى الناموس أيضاً: بيت الراهب، ويشار بالكلمة إلى الوحي والشرعية - راجع المنجد.

(١١١) ذخائر الأعلاق ص ٨٨.

(١١٢) قاموس الأناسيد ص ١٦٧.

(١١٣) قاموس الأناسيد ص ٤٢٤.

ويقول غيره:

من فاته منك وقت حظّه النّدم ومن تكن همه تسمو به الهمم
وناظر فى سوى رؤياك حقّ له يُفيض من جفنه بالدمع وهو دم
فما المنازل لولا أن تحلّ بها وما الدّيار وما الأطلال والخيّم (١١٤)

ويقول غيره:

وسرت إلى الحجاز بكل جدّ وقد دنت المنازلُ بعدُ بُعد
وصار الوصلُ سهلاً بعد كدّ فقلتُ من الغرام وفرط وجدى
بوصلك يا حجاز يزول كرى (١١٥)

ويقول غيره :

يا سائقاً غنّ النياق وزمّزماً أبشر فقد جئتَ المقامَ وزمّزماً
كم كنتَ تذكرنا منازل مكة وتقول إنَّ بها المنى والمغنم (١١٦)

ويقول غيره :

عندما شدّوا المحامل وتنادوا للرحيل
جئتُهم والدمعُ سائل قلتُ قفْ لى يا دليل
وتحمّل لى رسائل أيها الشّوق الجزيل
نحوها تيك المنازل فى العشى والبكور (١١٧)

ويقول ابن عربى :

قربت منازلهم ولاحت نارهم ناراً قد اشعلت الهوى إشعالا (١١٨)

(١١٤) قاموس الأناشيد ص ٤٢٧ .

(١١٥) قاموس الأناشيد ص ٤٣٠ .

(١١٦) قاموس الأناشيد ص ٥١٢ .

(١١٧) قاموس الأناشيد ص ٢١٣ .

(١١٨) ذخائر الأعلام ص ٩٣ .

ويقول:

ما نَزَلُوا مِنْ مَنْزِلٍ إِلَّا حَوَى مِنْ الْحَسَانِ رَوْضَةً طَاوُوسَا
وَلَا نَأْوَأُ عَنْ مَنْزِلٍ إِلَّا حَوَى مِنْ عَاشِقِيهِمْ أَرْضَهُ نَاوُوسَا (١١٩)

ويقول:

إِلْمَمَ بِمَنْزِلِ أَحْبَابٍ لَهُمْ ذِمٌّ سَحَّتْ عَلَيْهِمْ سَحَابٌ صَوْبَهَا دِيمٌ (١٢٠)

٩ - الدار:

الدار مؤنثة وقد تذكر (١٢١)، وجمعها دور، وديار، وأدور، وأدورة وديارة، وأدوار، ودورات، وديارات، ودوران، وديران، وهى فى الأصل المحل والسكن، وقد تطلق على البلد، وعلى القبيلة، وعلى غير ذلك. . علماً بأن الصوفية كانوا غالباً ما يستعملون ذات اللفظ مع ماله من جموع فى معانٍ رمزية تفيد المقام أو الجسد أو الموطن. . وبمعناها ورد ما يأتى:

يقول النابلسى:

تبارك الله ما فى الدار ديار (١٢٢) وإِنَّمَا هِيَ نِيرَانٌ وَأَنْسَوَارٌ
وقد أماطت سلمي عن براقعها فوجهها مُشْرِقٌ وَالطَّرْفُ سَحَارٌ (١٢٣)

ويقول السهروردي:

خلعت هياكلها بجرعاء الحمى وصبت لمغناها القديم تشوقاً

(١١٩) ذخائر الأعلاق ص ٩٨. والروضة الطاووس: التى فيها كل ضرب من النبت أو الورد. وجمع طاووس: طَوَاوِيسَ وأطواس. . والناووس: صندوق من خشب يضع النصارى فيه جثة الميت، ويطلق أيضاً على مقبرة النصارى. وجمعه: نواويس.

(١٢٠) ذخائر الأعلاق ٢٥٩.

(١٢١) ذخائر الأعلاق ١٣٦.

(١٢٢) الديار صاحب الديار أو ساكنه.

(١٢٣) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢١٢.

وتلفتت نحو الديار فشاقها رُبْعُ عَفْتٍ أَطْلَالُهُ فتمزّقاً
وقفتُ تُسأله فردّ جوابها رجع الصدى أن لاسييل إلى اللقا
فكأنما برق تألّق بالحِمَى ثم انطوى فكأنه ما أبرقا (١٢٤)

والمعنى أن النفس تخلت عن جسدها في الدار الفانية، واشتقت لمقامها الأول، فلما فارقت التفت إليه، فرأته أثراً بعد عين، وعندما سألته عمّا آل إليه أمره بعد فراقها له أجابها رجع الصدى بأن لاسييل إلى اللقاء، وأنّ ما كان من لقاء بينهما سابقاً يُشبه فيما يشبه تألّق البرق ولمعانه وزواله في دار الفنا.

ويقول آخر:

ولما تلاقينا عشاءً وضَمْنَا سواء سَبَيْلِي دارها وخيامي
وملنا كذا شيئاً عن الحىّ حيث لا رقيب ولا واش بزور كلام
فرشت لها خدى وطاءً على الثرى فقالت لك البُشرى بلثم لثامى (١٢٥)

ويقول ابن عربي:

قف بالديار وناجها متعجباً منها بحسن تَلَطَّف بتفجع (١٢٦)
١٠ - البساتين والرياض والحدائق:

ذكر الصّوفية الرياض والبساتين بمعانٍ رمزية في أشعارهم عنواناً بها المقام الجامع وغيره (١٢٧)، وكان مما ورد عنهم في ذلك ما يأتي:

يقول النّابلسي:

روضة زهرتها فائحة فانتشق نفحتها وأنّصّلح
وتنصّت لغنى بلبلها وعلى المطرب لا تقترح (١٢٨)

(١٢٤) السهروردي لسامى الكيال - طبع بيروت سنة ١٩٥٥ ص ٩٤.

(١٢٥) قاموس الأناشيد ص ١٥٤.

(١٢٦) ذخائر الأعلام ص ١٣٧.

(١٢٧) ذخائر الأعلام ص ٤٣ / ٤٩ / ٢٥٤.

(١٢٨) ديوان الحقائق ج ١ ص ١٢٠. هذا والقصيدة المشار إليها تضم ٢٤ بيتاً كان منها:

والمعنى الرمزي لما تقدّم، هو أنّ الشاعر ينصح العابد بأن يترك مادون الله من كرسى وعرش وجنة ونار، ويُقبل بإخلاص على رياض حضرته لِيَسْتَشْق من عبيرها الفوّاح ما يجعله أهلاً لاستماع الكلام الإلهي، والإرشاد الربّاني الذي ينعش الروح ويحرك الوجدان، ويهيج ماكن من مشاعر الطرب والبهجة والسرور والفرح. . . علماً بأنّ الأدب مع المعبود يقتضى من العابد أن يسقط مراده وهواه وتدييره.

ويقول نفس الشاعر أيضاً:

لحرب نفوسنا قد جاء فارس وَقَدْ فُتِنْتَ به روم وفارس
وفى روض القلوب له ثمار بأشجار المحبّة وهو غارس
تحجّب فالعقول عليه ضلّت ولا يدريه إلّا مَنْ يمارس (١٢٩)

والمعنى الرمزي لما تقدم، هو أن المولى الذى اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة عبّر الجهادين الأصغر والأكبر - غرس محبته المثمرة فى رياض قلوب جميع عباده، فاهتدى إليه مَنْ عرفه، وضلّ عنه من حجه الله به عنه. ويقول النابلسى وهو يتحدث عن محبته لله وذكره له ومشاهدته إيّاه - يقول: إنّّه وقد خلق أثراً من آثار الله، وثمره من ثمار مخلوقاته - لا يملك غير أن يلتزم بأوامر المولى ونواهيه؛ وهو حين شغف بجمال الله وهام بوجوده لم يسعه إلا أن يعرض عن عذل العذال ممن طالبوه بالسلو عنه، لعلمه باستحالة أن يُضْمَرَ سلواً لحبيب أصبح قلبه له مكاناً:

ساكن فى القلب يعمّره لست أنساه فأذكره
حاضر عندى أشاهده وسويداء القلب تبصره

= واترك الكرسى والعرش وما
واهجر الجنة والنار ولا

تحتة للغى أو للفلح
تفتّن عن ذاته بالشبح

(١٢٩) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٦٤.

إننى فى رَوْضِهِ ثمر
منتَه فىهِ ومؤمَّر
ثم لما عَزَّنى القمر

قلت للعذَّال مُدَّأمروا بسلو عَزَّ أَيْمَرِه
مالكى فى القلب مَكْنَه فسَلُوْى أين أضمره (١٣٠)

ويقول النابلسى أيضاً:

غيب من الغيب يتين بنا ونحن فى رَوْضِهِ شحاريره (١٣١)
تبارك الله علماً جعت بروض ازهاره عصفيره

والمعنى أن مجرد وجودنا فى رياض مملكته إن دلَّ على شىء فإنما يدل على أننا
أثر جمالى من آثار وجوده الغيبي، علماً بأن إدراك ذلك من أمر واضح جلى
يتغنى به كل أحد.

ويقول نفس الشاعر:

بذت الحقيقة من خلال ستورها واستأنمت من بعد طول نفورها
وتبسَّمت فى وجه عاشقها الذى قد هام منها فى بياض ثغورها
وتلبَّت للطارقين على الهوى بسواد مقلتها وبيض شعورها
فأقم قوامك وانتظر وانظر ولا تشغل زمانك بالجنان وحورها
واخلع لها ثوب الفناهى بالفنا واقبل على المرفوع من مكسورها
لا، بل نعم، بل كيف، بل كم، هذه هى روضة قد عطرت بزهورها
وشدت على عيدانها أطيَّارها فاسمع معى منها غناء طيورها
وانظر لبلبلها يغرد مُطرباً فى دَوْح هذا الكوبِ مع شحروها (١٣٢)

(١٣٠) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٥٠ / ٢٥١.

(١٣١) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٥٢.

(١٣٢) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٥٤. هذا والشحور جمع شحارير، ويقال له أيضاً الشحور، وهو طائر
أسود أكبر من العصفور حسن الصوت، من فصيلة الشحوريات، منقاره أصفر طويل (راجع المنجد مادة
شحر رقم ١).

والمعنى الرمزي لما تقدّم، هو أن النابلسي وقد بدت له الحقيقة من خلال ستورها، وتبّست في وجهه، وتلبست بسواد مُقلتها، وضياء مَطْلَعها للطارقين لها من أمثاله من العشّاق - لما بدت له بالصورة التي ذكرناها حارّين أن يُعبّر عنها باعتبارها أثرًا، أم باعتبارها مؤثرًا، ومن ثمّ كنت تراه إذا ما نظر إليها من حيث الحقيقة الوجودية لها نفى أن تكون أثرًا، وإذا ما نظر إليها من حيث المجاز أثبت لها الوجود، على أنّه وقد استحال على الشاعر معرفة كنه كيفية الوجود وكميته أثر أن يتفكر في مخلوقات الله، فشبهها بالرياض النّصرة التي تلذّ الحواس من منظرها، وتبتهج النفوس من طيب روائح زهورها، وتعشّق الأفئدة تغريدها المطرب بالتسبيح والذكر - على روح هذا الكون.

ويقول سيدى النابلسي:

نَفَحَتْ رِيحَانَةُ الْأَسْرَارِ مِنْ رَوْضِ اللَّقَا فَسَكَّرْنَا بِشَمِيمِ الطَّيِّبِ مِنْ ذَاكَ الْهَيُوبِ (١٣٣)

والمعنى الرمزي للبيت المذكور يفيد أنّ العارف بعد أن نفحه الله بريحانة أسرارهِ، وقبل منه توجّهه غابَ بالله عمّا سواه، وسكر وانتشى، لا باللقاء فقط، بل بكل حركة تذكّره بذلك اللقاء، وتُعيد إليه نفحة طيبه.

ويقول سيدى النابلسي وهو يسوّي بين مفهوم الحان والحضرة، ويغيب عن الأثر برؤية المؤثر، ويجرد من ذاته ما يجعلها تارةً في صورة الكعبة التي يطوف عليها بكأس الحب، وأخرى بصورة المكان الذي يتمتع فيه للأحان، نافخًا من نفسه لنفسه مزمار محبته، مصغيًا لا ستجابة روحه لنداء خالقه، راقصًا كالقيّنة طربًا بما يجمع، مُتَشَقِّقًا من حقيقة الجمال الإلهي البادى في صور المخلوقات ما يجعله يهيم بمآياه من جمال يعكسه مجرد وجوده هو وأمثاله في الحياة:

يقول:

أطوف على ذاتي بكاسات خمرتي وأستمع الألحان في حان حضرتي
وأنفخُ مزماري وأصغي لصوتي وأضرب دُفِّي حين ترقص قيتي

(١٣٣) ديوان الحقائق ج ١ ص ٤٧.

وأنشق من روضى نسيم حقائقى ويسرح طرفى فى حدائق نشأتى (١٣٤)
يشير النابلسى فى قصيدة له عن الذات الإلهية بما يفيد إعجاب كل عارف بأفعال
الله وتنعمه ببلقائه، وسعادته باجتماع همه عليه، واصفًا جمال المقصد الإلهى
بالروضة الحسيّة، داعيًا المولى أن يُديم علاقته به:

سقى الله روضات المقاصد واللقاء من الكل حيثُ الكلّ منها رأو حُسنًا (١٣٥)
وجاء عن النابلسى فى موشّح رائع له ما يفيد بأنّه وقد عرف الله، فقد
أصبحت حياته تُشبه فى جمال جمالها الرياض الزاهية بالأزاهير ذات النسمات
اللطيفة، والعرف الباهى:

روضى زاهى بأزاهير التجلّى
عرفى باهى بلطيف النسمات (١٣٦)

ويدعو النابلسى سامعه فى قصيدة له أخرى إلى أن يتفكّر ويتأمّل إلى آثار
ما صنع الله، يجد الروض فيه يفوح عطرًا، والمياه تنساب كسبائك الذهب،
والنبات والأزاهير آياتٌ شاهدة على عظمة المولى ووحدانيته.

يقول:

تأمّل فى خلال الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك
فإنّ الروض فيه فائحات
نوافج نرجس مستعطرات
إذا شبهتها قل نابتات

عيون من لجين شاخصات بأحداق هى الذهب اليك
وكم لله فى الدنيا نبات
بآيته لوحدته ثبات

(١٣٤) ديوان الحقائق ج ١ ص ٧٨.

(١٣٥) ديوان الحقائق ج ٢ ص ١٢٠.

(١٣٦) ديوان الحقائق ج ١ ص ٩٣.

وأزهار تلوح ملونات

على قضب الزبرجد شاهدات بأنّ الله ليس له شريك^(١٣٧)

ويقول النابلسي أيضاً:

يارياض الجنان من حان قربي عطرينا بالطيب من نفحاتك
وانشرى ما انطوى من الذكر عتاً وامنحينا اللذيد من ثمراتك
إننا عنك ظاهرون بلطف منك في أرضك اقتضا نياتك
لم نجد كثرة الوسائط جماً تمنع الروح ربنا من هباتك
فالذي منك قد دنا فتدلى لم ينقصه كونه ابن العواتك^(١٣٨)

والمعنى الرمزي لما تقدم يفيد أنّ الشاعر وقد نصبح العابد قبلاً بمحبة الله يعود فيخاطب رياض المحبة الإلهية، والقرب الرباني بأنّ تعطره بنفحات منها طيبات، وتشر عليه من المعارف ما كان مطوياً عنه، وتمنحه اللذيد من ثمرات المحبة.

ذلك أنّ جميع المخلوقات عند الشاعر إنما ظهرت في هذا الكون بلطف من الله اقتضته إرادته، وهى على كثرتها وتنوعها لا تحجب رؤية المؤثر فيها؛ ألا ترى أن رسول الله ﷺ مع ارتباطه بالعواتك من قريش، وهى رابطة جدية حسيّة بشرية تخطى الوسائط التى تربطه بالخلق، فدنا من الخالق حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى.

ويقول نفس الشاعر أيضاً :

قد هدينا بالخاطر المستقيم ووجدنا معارفاً وعلوماً
فشممنا بها روائح غيب وسكرنا بطيب ذاك الشميم
كرياض زهورها فائحات لذوى الشم مع هبوب النسيم^(١٣٩)

(١٣٧) ديوان الحقائق ج ٢ ص ٢، هذا والنوافج جمع نافجة وهى وعاء المسك [راجع المنجد].

(١٣٨) ديوان الحقائق ج ٢ ص ٨.

(١٣٩) ديوان الحقائق ج ٢ ص ٨٢ / ٨٣.

والمعنى الرمزي لما تقدم يُفيد بأن فطرة الإنسان التي أشار إليها الرسول ﷺ في بعض أحاديثه - هي التي هدت العباد إلى الصراط المستقيم، حيث المعارف والعلوم المفاضة على الإنسان من لدن الإله، وحيث الروائع الغيبية التي يسكر الفرد شميمها، كما كان يسكره شميم نظائرها من الروائع الفائحات من زهور الرياض إذا ما هبّ عليها النسيم.

ويقول:

تعودت أغياره أمة لا تعرف اليقظة والانتباه
روض جرت أسماؤه جدولا منه وأنواع البرايا مياه (١٤٠)
والمعنى الرمزي في إطار السياق العام للقصيدة يُفيد أن البعض غفلوا عن رؤية الله، وتعودوا رؤية غيره من مخلوقاته، مع علمهم بأن الغير لا يعدو أن يكون مياهاً كونتها جداول كان مصدرها روض هو ذات الإله الباري.
ويقول النابلسي في تخميسه لبعض أبيات الشيخ أبي أيوب:

كم روض أنس بكم شقت كئامه
فهيجت بشذا الذكرى نسائمه
وغصن نشأة كوني كم أداومه
ويعتريني إذا ناحت حمائم وجد يذوب الحشا من ذكر أهليه (١٤١)
والمعنى الرمزي لما تقدم، يُفيد أن الشاعر وقد اشتد به الحنين إلى لقاء الله - صارت نسائم الرياض تهيجّه، والتأمل الدائم في نشأته هو يؤرقه، ونوح الحمائم يحرك وجدّه، ويذيب أحشائه.
إنه يبغى الله - مع علمه بأن الله وإن كان مغيباً عنه هو حاضر معه بآثاره. .
إن إدراك الله لا يتأتى إلا لمن اصطفاهم من خلقه، وقربهم إليه من عباده، فهؤلاء

(١٤٠) ديوان الحقائق ج ٢ ص ٢٠٢.

(١٤١) ديوان الحقائق ج ٢ ص ٢٠٨.

لاغيرهم هم الذين يُنفذون بصيرتهم إلى مالا ينفذ إليه سواهم، وينالون من المعرفة الغيبية بعد استعمال وسائلها - مالا يناله أحدٌ مخالفهم .

إنهم يرون الله ببصائرهم عبر ما يشاهدونه بأبصارهم من مخلوقاته، فالروضة الغناء التي اغتنت بحسنها عن الكل، وسهل تناول ثمارها على الجاني، إن دلت على شيء فإنما تدل على مَنْ وهبها الجمال، وأضفى عليها الحسن والزينة، وجنة الفردوس إذا ما اتخذ الفرد القلبَ لا النفس الشهوانية لها باباً ومدخلا، أمكنه أن ينفذ عبرها للتنعم بجمال منشئها، وإبداع خالقها .

بدت نار ليلى والظلام يُنيرها	من الكون حتّى زال عندى لها العشو
وما كل ذى قلب ينال منّا	من الغيب لكنّ كل بئر له دلو
هى الروضة الغناء أغنت بحنها	عن الكلّ فيها عرعر العير والسرو
وأغصانها منها تدلت كرامة	علينا وقد طاب التناول والعطو
هى الجنة الفردوس والقلب بابها	ومن جاءها من نفسه صده العمو ^(١٤٢)

ويقول آخر:

يا حضرة أحذية صمدية	أقلت حواس الذاكرين قرارا
فى روضة رقصت لنا أغصانها	طرباً وأجرى حنّها أنهارا ^(١٤٣)

والمعنى الرمزى لما تقدم، يفيد أنّ الشاعر وقد أفاض قبلاً فى مدح شيخه (يوسف بن على) رأى أن يلتفت إلى مخاطبته حضرة المولى الأحذية الصمدية التى أقلت حواس الذاكرين من أجلها خاصة حين بدالهم جمال محبوبهم عبر آثاره من رياض محبة طرب لمعارفها العباد، ووسائل حياة سرت فى نفوس أهل الله، فتحقق فيهم قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا ءَاخِرَ فَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^(١٤٤).

(١٤٢) ديوان الحقائق ج ٢ ص ٢١٨ .

(١٤٣) قاموس الأنشيد ص ١٧ / ١٨ .

(١٤٤) سورة المؤمنون - الآية ١٤ .

ويقول غيره:

الزهر فى الروض قد تكلل
والورد بالعجب جرّ ذبلاً
والنرجس الغضّ لاح يزهو
وقام ريحانها خطيباً
وبط الياسمين كفّاً
وإذ علا فوقهن طير
وكل غصن غدا رطيباً
وجيش جنح الظلام ولّى
يا صاح جدّد لنا سرورا
وليس وقت المرور يترك
وها ختامى بمدح طه
وكوكب الصّبح قد تهلّل
والآس بالطلّ قد تبلّل
بطرفه الناعس المذبل
عليه ثوب الجمال مُبل
كأنه للدعاء يأل
قد صاح من شوقه وهلّل
على ضياء النهار يأل
وجيش ضوء النهار أقبل
فليس وقت المرور يهل
أما ترى الصفو قد تكمل
نبينا المصطفى الكمل (١٤٥)

والمعنى الرمزي لما تقدم يُفيد أنّ جمال الأثر المتمثّل فى الزهور والورود
والنرجس والريحان والياسمين، وما يعلو ذلك من طلّ، ويغرّد فوق الأغصان
من طيور، ويسود البيئة من ضياء - إنّ دلّ على شيءٍ فإنما يدلّ على إثارة بواعث
البهجة والسرور بخالق كلّ أنواع الجمال الذى سنامه إرسال سيّدنا محمد ﷺ
للأمة هادياً يهدى به الله من اتّبع رضوانه سبيل السلام.

ويقول الشيخ قريب الله:

رياضك يا نعات من شهود شهودك من تفرّد بالبقاء (١٤٦)

(١٤٥) قاموس الأناشيد ص ٣١.

(١٤٦) رشفات المدام ص ١٧.

ويقول:

ويعبق من رياض القرب عطر بنشقتة سينهض كل ناء (١٤٧)

١١ - القباب:

وردت القباب فى شعر الصوفية بمعانٍ رمزية، تعنى فيما تعنيه ظلّ الكسب (١٤٨) الذى يقوم به الفرد فى هذه الحياة، أخذًا من قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (١٤٩). علماً بأن اختيارهم للفظ (القباب) سببه أن الشكل الكرى أفضل الأشكال، وأول الأشكال، بل إنه ليس له أول ولا آخر إلاً بحكم العرض فيه (١٥٠).

هذا وقد جاء عن القباب فى أشعار الصوفية ما تمثله النماذج المذكورة أدناه:

يقول ابن عربى :

وناد القباب الحمر من جانب الحمى تحية مشتاق إليكم متيم (١٥١)

والمعنى المراد هو أن الشاعر يقول لشوقه، إذا سلّمت ونظرت إلى اختلاف ألوان القباب فلا تناد منها إلاً القباب الحمر، فإنها محل الجمال والمخصوصة بالعرائس المخدرات، يكنى بذلك عن الأجرة، أو الحقيقة الإلهية ذات الحمى الأعز المنال.

ويقول :

نصبوا القباب الحمر بين جداول مثل الأساود بينهن قعود (١٥٢)

(١٤٧) رشقات المدام ص ١٧ .

(١٤٨) ذخائر الأعلام ص ٩١ .

(١٤٩) سورة البقرة - الآية ٢٨٦ .

(١٥٠) ذخائر الأعلام ص ٢٢ .

(١٥١) ذخائر الأعلام ص ٢١ .

(١٥٢) ذخائر الأعلام ص ٤١ .

والمعنى المراد، هو أن الشاعر يشير بما ذكر، إلى الحكم الإلهية، والعلوم
للدنية، التى متعلّقها الأعمال الموصّلة إلى هذه الحكم، تلك التى حرص أهل
الله عليها حرص الأسود أو الحيات على طعامها وقوتها.

ويقول:

قالت: تركت على زرود قبابهم والعيس تشكو من سراها كاللا
قد أسدلوا فوق القباب مضارباً يسترن من حرّ الهجير جمالا (١٥٣)

والمعنى المراد بما تقدم، هو أن الشاعر يُشير بما ذكر إلى أنه وقد سأل عن
الأحبة ومسار عيهم وهمهم - أجيب بأنهم مازالوا يقيمون فى ظلّ كُبههم على
حالة تشبه الزرود أو الرمل فى التزلزل وعدم الثبوت، لعجزهم عن إدراك
مالأيدرك، وضبط من لا ينضبط، وتصور من لا يتصور؛ بل ولا يحصل فى
النفس منه إلا آثاره.. علماً بأن من يسأل عنهم كانوا قد أسدلوا - أثناء طلبهم
لمحبوبهم - ستاراً على أجسادهم مخافة أن تحرقهم سبحات وجه الله، وتُفنيهم
سطوات أنوار جلاله.

١٢ - أماكن أخرى:

يكاد يكون من المتعذر إحصاء كلّ ما ورد فى الشعر من أماكن، على أنه مهما
كان لفظها أو معناها فى الأصل، فإنّ غالب استعمال الصوفية لها كان فى معانٍ
رمزية غايتها الإشارة إلى المحبوب، والهيّام به، وإعلان الشوق له، والتفنى
بآثاره، والتلذذ بذكر آلائه، ومصاب رحماته وفيوضاته.

الأماكن بالنسبة للصوفية صفات قدسية علوية، يعبر ذهن العارف بها ظاهرها
إلى باطنها، وقالها إلى أسرارها، وظلمات شكلها إلى أنوار مدلولها.

إنها الرموز التى نددت عن العبارة فتلقفتها الإشارة، وسمت عن لغة اللسان
فأشرق بها باطن الوجدان، بخالق تلك الأماكن وبارئها والمؤثر فيها تعلق قلب

(١٥٣) ذخائر الأعلام ص ٩١.

العابد، فطفق يُعلن عن هيامه بمحبوبه في نماذج متعددة، كان أبرز ما فيها وضوح الرؤيا بالنسبة إلى العابد بين أصل النفس الذي منه انبعثت وصدرت، وظلمة الطبيعة التي إليها هبطت ووردت:

يقول الشاعر:

ما بين صال المنحنى وظلاله ضلّ المتيم واهتدى بضلاله
وبذلك الشعب اليماني مُنية للصبّ قد بعدت على آماله
يا صاحبي هذا العقيق فقّف به متوالهاً إن كنت لست بواله
وانظره عنى إنّ طرفى عاقنى إرسالُ دمعى فيه عن إرساله
واسأل غزال كناسه هل عنده علم بقلبي فى هواه وحاله؟ (١٥٤)

ويقول غيره:

هل نار ليلى بدت ليلاً بذى سلم أم بارق لاح فى الزوراء فالعلم
أرواحَ نَعْمَانِ هَلَا نَسْمَةُ سَحْراً وماء وجرة هَلَا نَهْلَةٌ بفم
يا سائق الظعن يطوى البيد معتسفاً طىّ السّجل بذات الميخ من إضمّ
عجّ بالحِمنى يارعاك الله معتمداً خميلة الضال ذات الرّند والخزّم
وقف بسلع وسل بالخزع هل مطرت بالرفّمتين أثيلات بمُنسجم
ناشدتك الله إنّ جزّت العقيق ضُحىً فاقرّ السّلام عليهم غير محتشم
وقل تركتُ صريعاً فى دياركم حيّاً كميت يُعير السّقم للسّقم
آهاً لأَيّامنا بالخيف لو بقيتُ عشراً وواهاً عليها كيف لم تدم
عنّى إليكم ظباء المنحنى كرماً عهدت طرفى لم ينظر لغيرهم (١٥٥)

ويقول غيره:

عمرّك الله إنّ مرّرتَ بوادى ينبع فالدهننا فبدر غادى
ولكت النقا فاودان ودا ن إلى رابغ الروى الثيماد

(١٥٤) ذخائر الأعلام ص ٧٨.

(١٥٥) قاموس الأناشيد ص ١٣٣.

وقطعت الحرار عمداً لخيما
وتدانيت من خلوص فعُفا
ووردت الجموم فالقصر فالدك
وأتيت التنعيم فالزاهر الزا
وعبرت الحجون واجتزت فاختر
وبلغت الخيام، فأبلغ سلامي
يارعى الله يومنا بالمصلّى
وقباب الركاب بين العليم
يا أهيل الحجاز إن حكم الدهر
فغرامى القديم فيكم غرامى
قسماً بالحطيم والركن والأستار
وظلال الجنب والحجر والميز
ما شمت البشام إلا وأهدى
ويقول غيره:

أبرقُ بدا من جانب الغور لامعُ
أنارُ الغضا ضاءت وسلمى بذى الغض
أنشر خزامى فاح أم عرّف حاجر
ألا ليت شعرى هل سلّمتى مقيمة
وهل لعلّع الرعد الهتون بلعلّع
وهل أردن ماء العذيب وحاجر
وهل قاعة الوعساء محضرة الربى
أم ارتفعت عن وجه ليلى البراقع ؟
أ أم ابتعت عمّا حكته المدامع ؟
بأمّ القرى، أم عطر عزّة ضائع ؟
بوادى الحمى حيث المتيمّ والع ؟
وهل جادها صوب من المزن هامع ؟
جهاراً وسرّ الليل بالصبح شائع ؟
وهل ما مضى فيها من العيش راجع ؟

(١٥٦) قاموس الأناشيد ص ١٣٥ / ١٣٦ .

وهل برى نجد فتوضح مُنْذُ
 وهل بلوى سلع يُسَلُّ عن متيِّم
 وهل عذبات الرند يقطف نورها
 وهل أثلاث الجذع مثمرة، وهل
 وهل قاصرات الطرف عَيْنُ بعالج
 وهل ظبيات الرقمتين بعبدنا
 وهل فتيات بالغوير يريننى
 وهل ظل ذاك الضال شرقى ضارج
 وهل عامر من بعدنا شعب عامر
 وهل أم بيت الله يا أم مالك
 وهل نزل الركب العراقى معرفا
 وهل رقصت بالمازمن قلائص
 وهل لى بجمع الشمل فى جمع مسعد
 وهل سلّمت سلمى على الحجر الذى
 وهل رضعت من ثدى زمزم رضة
 لعلّ أصحابى بمكة يبردوا
 وعلّ اللّيلات التى قد تصرمت
 ويفرح محزون ويحيا متيِّم

أهيل النقا عمّا حوته الأضالع ؟
 بكازمة ماذا به الشوق صانع ؟
 وهل سلماتُ بالحجاز أيانع ؟
 عيون عوادي الدهر عنها هواجع ؟
 على عهدى المعهود أم هو ضائع ؟
 أقمنا بها أم دون ذلك مانع ؟
 مرابع نُعم نعيم تلك المرباع ؟
 ظليل فقد روتّه منى المدامع ؟
 وهل هو يوماً للمحين جامع ؟
 عُرب لهم عندى جميعاً صنائع ؟
 وهل شرعت نحو الخيام شرائع ؟
 وهل للقباب البيض فيها تدافع ؟
 وهل لليالى الخيف بالعرم بائع ؟
 به العهد والتفت عليه الأصابع ؟
 فلا حرمت يوماً عليها المراضع ؟
 بذكر سليمى ما تجنّ الأضالع
 تعود لنا يوماً فيظفر طامع
 ويأنس مشتاق ويلتذ سامع^(١٥٧)

١ - المياه:

الماء: عند الصوفية هو سرّ الحياة الذى يُحيى النفوس، ومعدن الحياة
 الأزلية^(١٥٨)، وعنه ورد ما يأتى:

(١٥٧) قاموس الأناشيد ص ١٥٥ / ١٥٦ .

(١٥٨) ذخائر الأعلام ص ٩٠ / ٢٠٠ .

يقول ابن عربى :

ساروا يريدون العذيب ليشربوا ماءً به مثل الحياة زُلالة (١٥٩)
والمعنى أن العارفين بالله ساروا طالبين سرّ الحياة بمقام الصفاء من عين الجود
تحيا بذلك نفوسهم؛ علماً بأنّ الشرب المكنى به يقع فى المرتبة الثانية من مراتب
مقام التجلّى، أما أوّل تلك المراتب فهو الذوق، وثالثها الرى، ورابعها السكر.

ويقول ابن عربى أيضاً:

يا خليلي ألباً بالحِمَى واطلبا نجداً وذاك العلما
وردا ماء بخيمات اللوى واستظلا ضالها واللما (١٦٠)

هذا والشاعر فى هذين البيتين يخاطب عقله وإيمانه يقول لهما: انزلا بالحماية
الإلهية عند حجاب العزة الأحمى، واطلبا علوماً وهبية تضاف إلى ما ستنالانه من
معرفة كبية تمكّنكما من الجمع بين ما يستقل العقل بإدراكه وبين مالا يستقل به -
ناصحاً لهما كذلك بأنّ يردّا معدن الحياة الأزلية بحضرة العطف الإلهى، مستظلين
لطلب الراحة من الحيرة بالإقرار بالعجز عن درك الإدراك، حيث أنّ فى مثل هذا
العجز السلامة والتليم، إذ الأمر فى الحقيقة أعزّ وأعلى من أن يتقيّد بشيءٍ، أو
لشيءٍ، أو تُدرّكه الأبصار، أو تحيط به الحواس.

ويقول:

وَعَاظَتْ مِيَاهَ الْعُضَا مِنْ غَضَى بِأَضْلَعِهِ مِنْ هَوَى سَاحِرِ (١٦١)

ويقول غيره:

واهاً إلى ماء العذيب وكيف لى بحشاي لو يصفى ببرد زلاله
ولقد يجلُّ عن اشتياقى ماؤه شرفاً فواظمتى للامع آله (١٦٢)

(١٥٩) ذخائر الأعلام ص ٩٠.

(١٦٠) ذخائر الأعلام ص ٢٠٠.

(١٦١) ذخائر الأعلام ص ٢٥٦.

(١٦٢) قاموس الأناسيد ص ١٣٣.

٢ - السحابة أو الغيم :

السحابة لفظ مفرد، وجمعها: سحائب، وجمع السحاب سُحُبٌ، ومعناه في الأصل الغيم.. . علماً بأنَّ الصوفية استعملوا ذات اللفظ في معناه الأصلي تارة، وفي معانٍ أخرى له مجازية ورمزية تارة أخرى، أرادوا بها الإشارة إلى معانٍ منها:

(أ) الفيض الإلهي وما في معناه، من مثل: الهبات السماوية، والنفحات الربانية.

(ب) الأحوال التي تنتج المعارف.

(ج) الحجب التي تمنع المريد من الاتصال بخالقه، وتحول بينه وبين الالتزام بهديه وإرشاده^(١٦٣).

وقد ورد عنهم في ذلك ما تمثله النماذج الآتية:

يقول سيّد الشيخ قريب الله وهو يخاطب السَّحْب، أو الواردات الإلهية، والرحمات الربّانية، شاكياً لها ظمأه، طالباً منها أن تمنّ عليه بسر الحياة:

يا ساكبات السحب إنّي ظامئٌ في قفرة جودى بماء حياتي^(١٦٤)

ويقول نفس الشاعر وهو يتحدث عن ذوى الهمم ممن جدوا في السير إلى محبوبهم فغيّبهم عمّا سواه، وأفنأهم عمّا عداه، وأغدق عليهم نفحاته، وسحب هباته، ووافر ثوابه وعطائه.

سرايا الجيلي قد سارت * إلى محبوبها طارت * إلى أن فيه قد حارت * وغيّها وأفنأها
وقد فاحت لها الأعطار * وجاد السحب بالأمطار * وقد حنت لتلك الدار * ونالت خير عقبها^(١٦٥)

(١٦٣) ذخائر الأعلاق ص ٤٠.

(١٦٤) رشقات المدام ص ٧٣.

(١٦٥) رشقات المدام ص ٤٠٢.

ويقول نفس الشاعر، وهو يتحدث عن الأكابر ممن أخلصوا في العبادة وساروا على قدم الرسول عليه السلام، فجعلهم الله مصدر خير لغيرهم، ووسيلة إرشاد، وسُحب هدى لسكان الأمصار والآفاق.

قومٌ بهم سحب السماهتانة عمت لمن في المصّر والآفاق (١٦٦)

ويقول النابلسي:

ورؤية الحق جلّ فينا وليس فيها لنا ارتياب
والشمس في الأفق نور وإن بدا دونها السحاب (١٦٧)
والمعنى الرمزي لما تقدم، يفيد أن قلوب أرباب التجلّي وقد صفت كما صفّا
الغدير الذي جنب أن يحركه النسيم (١٦٨)، رثى فيها الله دون شك أو ارتياب،
ذلك أنّ نور المولى أسمى وأرفع وأوضع من أن تحول الكثافة والظلمة والحجب
دون معرفته ورؤيته.

ويقول الشيخ قريب الله:

إذا هبت الأرياح من نحو طيبة فقد طابت الأرواح وانكشف الخطب
وإن فاح عرّف من هناك فقد بدا لسرك معنّى لا تُفيدكهُ الكتب
وإن هطلت يوماً عليك سحابة من الحبّ أحيت أنفُساً ونما الحبّ (١٦٩)

(١٦٦) رشفات المدام ص ٢٤٩.

(١٦٧) ديوان الحقائق ج ١ ص ٤٢.

(١٦٨) إشارة إلى ما ورد من قول بعضهم:

إذا سكن الغدير على صفاءٍ وجنب أن يحركهُ النسيم
يرى فيه السماء بلاء مرء كذاك الشمس تظهر والنجوم
كذاك قلوب أرباب التجلى يرى في صفوها الله العظيم

(١٦٩) رشفات المدام ص ٢٧ / ٢٨.

ويقول ابن عربي:

رقم الغيم على ردن الغما مِنْ سنا البرق طرازاً مذهباً
فجرت أدمعها منها على صحن خديها فأذكت لهباً (١٧٠)

٣- المطر:

المطر لفظ مفرد، جمعه أمطار، وهو في الأصل ماء السحاب، وقد ورد في أشعار الصوفية هو وما في معناه بنفس هذا المعنى تارة، وبمعان رمزية ومجازية تارة أخرى، أذكر منها ما يلي:

يقول ابن عربي:

والودق ينزل من خلال سحابه كدموع صب للفرق تبدد (١٧١)
والمعنى أن نزول المعارف الإلهية من خلال أبواب التجلي المكنى عنها بالسحاب ينساب وينهمر بصورة تخرج عما يقتضيه الكب، أو تتدخل فيه الإرادة البشرية.

ويقول النابلسي:

يا من إذا بخل الغمام بقطره جادت أنامله بأبحر برّه (١٧٢)
ويقول أيضاً:

سقى الوادى وحيّاً ربّه الودق رياً
فكم دارت عليّاً به كأس الحميا (١٧٣)

ويقول سيدى الشيخ قريب الله:

وترقّبن وقت الإجابة إنه لإجابة الداعين مثل الموسم

(١٧٠) ذخائر الأعلام ص ١٨٣.

(١٧١) ذخائر الأعلام ص ٥٦.

(١٧٢) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٥٣.

(١٧٣) ديوان الحقائق ج ٢ ص ١٥١، هذا والودق هو المطر.

والنَّصْف من شعبان أكبر وقتها
ويقول أيضاً:

قَوْمٌ إِذَا مَا جَتَهُمْ مَسْتَمْطِرًا
وَيَقُولُ سَيِّدِي الشَّيْخُ قَرِيبُ اللَّهِ:

يَعْمُ الْوَابِلُ الْهَتَّانَ أَرْضًا
فَتَنَّبَتْ مِنْ قَطُوفِ الْحُبِّ حَبًّا
وَيَقُولُ الْيَافَعِيُّ:

إِلَهِي لئن لم تعف فالويلُ كُلُّهُ
تَعْلَمَ عِلْمًا لَيْسَ فِيهِ بِعَامِلٍ
فإن تنتقم من ظالمٍ شرٍّ ظالمٍ
وأن تعفُ منك العفو فضلٌ أتت به
على مجذبٍ عطشانٍ لهفانٍ مقفرٍ
لعبدٍ مَسِيءٍ ذِي ضَلَالٍ وَبَاطِلٍ
وكم قال من قولٍ وليس بفاعلٍ
فَعَدَلُ أَتَى مِنْ عَادِلٍ خَيْرٍ عَادِلٍ
سَحَابٍ جَوْدٍ جَادٍ بِالْخَصْبِ هَاطِلٍ
فَقِيرٍ إِلَى غَوْثٍ يَغِيبُ وَوَابِلٍ (١٧٧)

٤ - الحَوْضُ أَوِ الْبَرَكَةُ:

الحوض لفظ مفرد، جمعه أحواض، وحياض، وحيطان، وهو مجتمع الماء،
وسمى أيضاً بركة وتجمع البركة على برك. . هذا وقد استعمل الصوفية اللفظين
في معنهما الأصلي تارة، واستعملوهما بمعانٍ رمزية تفيد الإيمان والمعرفة والقلب
تارة أخرى. . وكان ثَمَّ ورد عنهم في ذلك ما يلي:

يقول النابلسي :

حَوْضِي الَّذِي مَآؤُهُ طَوَّلَ الْمَدَى جَارِي
مِنْ عَيْنِ أَمْرِ الَّذِي لَمَّا يَزَلْ جَارِي

(١٧٤) رشفات المدام ص ٣٤١.

(١٧٥) رشفات المدام ص ٢٤٩.

(١٧٦) رشفات المدام ص ١٧.

(١٧٧) حكايات الصالحين لليافعي ص ٤٥.

هيهات يا غرّ أن أعطش وهو جارٍ إن كنتَ تقدر على هذا فلي جارٍ (١٧٨)
ويقول أيضاً:

حوضى الذى فيه أنبوبات من كوثر نهر الجنان قليلو للسوى كوثر
أنبوب روحى وأنبوب الجسد كوثر يسن موسى الهوى للخلق يا كوثر (١٧٩)
وجاء عن البركة مايمثله قول الإمام النابلسى:

وبركة تذهل العقول بها تحار فى بعض وصفها الفكر
كأنها مقلّة محدقة عينٌ من الوجد ينالها السهر
تبكى وما فارقت لها وطناً يوماً ولا فات أهلها وطر
تخال أنبوبها لصحتّه والماء يعلو بها وينحدر
كصو لجانٍ من فضة بكت فواقع الماء تحتها أكر (١٨٠)

٥ - الفوّارة أو النّافورة:

الفوّارة مؤنث الفوّار، وهو منبع الماء، ويطلقُ العامة ذات اللفظ على ما يفور صاعداً. . علماً بأنّ اللفظ عند الصّوفية يشير إلى الحركة الدائبة التى تتحركها الكائنات وهى تسبّح بحمد الله، وتخر لعظمته، مذكرة غيرها بواجبهم نحو مولا هم.

هذا وقد ورد عن النافورة أو الفوّارة فى شعر الصوفية - حقيقة ورمزاً - مايمثله النماذج التالية:

يقول سيدى النابلسى:

وربّ فوّارة راقّت نواظرنا ومن يشاهدها قد حركت طربه
يعلو وينزل فيها الماء منحدرًا كأنّها طاسة البلّور مُنقلبه (١٨١)

(١٧٨) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٣٢ .

(١٧٩) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٣٢ .

(١٨٠) نفحات الأزهار ص ٢٦٠ .

(١٨١) نفحات الأزهار ص ١٧٦ .

ويقول أيضاً:

ربّ فوّارة خلال مروج مآؤها نائر عقود لآلى
كلما قام ذلك الماء فيها خرّ للأرض ساجداً للحال
وهو فى حالة الجود تراه فى هدير بذكره متوالى
ليس إلا هو الشخصوس إذا ما زال شخص أتاه شخص تالى
جلّ يا ماء خالق لك أجرى دائماً فهو ربنا ذو الجلال
قم به هكذا بنفسك واقعد فى السواقى وصوت ذكرك عالى
عبرة للذى يرى بك منّا نفسه فى تكوّن وزوال
مدة العمر فهو لله عبداً من أولى الأمر أمر مولى الموالى (١٨٢)

٦- الناعورة:

الناعورة لفظ مفرد، جمعه نواعير، وهى فى الأصل آلة لرفع الماء، قوامها
دولاب كبير وقواديس مركبة على دائرة.. علماً بأن الصوفية قد استعملوا ذات
اللفظ بمعنى رمزى ومجازى، مفاده الإشارة إلى المنبع الأساسى لكل موجود،
وقد يُطلق اللفظ عندهم على المخلوقات عامة إذا ما أحنت الاستجابة لباريها،
وانصاعت لأوامره، وابتهجت طرباً بعبادته:

وفى معانى ما أوردناه:

يقول النابلسى:

لا تخلط الواجب بالمكن وكن بتمييزهما مُعتنى
فالواجب الحق وجوداً وما سواه غير العدم المكن
مكوّن الذرات يأتى بها وجوده بالقلم المقتنى

(١٨٢) ديوان الحقائق ج ٢ ص ٣٧.

يركب الأشياء منها على تصويرها من فاضل أو دنى
تراه فى صورة (ناعورة) وتارة فى شكل روض جنى
وهو الذى قد جلّ فى نفسه عن صورة التّصوير للأعين (١٨٣)
ويقول أيضاً:

الغصن يرقص و(النواعير) التى بالجنك قارنّها غناء حمام (١٨٤)

٧- العين أو ينبوع:

العين لفظ مفرد، جمعه أعين وعُيون، وهو فى الأصل مصبُّ الماء، ومفجر ماء البئر، وينبوع الماء، وبهذا المعنى وبمعان أخرى رمزية ومجازية، استعمل الصوفية ذات اللفظ ليشيروا به إلى:

(أ) المحبة .

(ب) الأصل .

(ج) بارئ الأشياء وخالقها .

وقد ورد عنهم فى ذلك مايلى:

يقول النابلسي:

عين غدت كل العيون جفونها يا قطرة فزنا بكل بحورها (١٨٥)

ويقول:

اشرب من العين لا تشرب من الكاس حتى تحقق وجود الطاعم الكاسي (١٨٦)

(١٨٣) ديوان الحقائق ج ٢ ص ١٨٥ .

(١٨٤) ديوان الحقائق ج ١ ص ١٤ .

(١٨٥) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٥٥ .

(١٨٦) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٧٢ .

ويقول:

ثُمَّ سَفَّهَمُ إِلَى حِمَاكَ قَبُولًا وَاسْقَهُم مِّنْكَ رَائِقَ الْيَنْبُوعِ (١٨٧)

٨ - البحار:

البحر لفظ مفرد، جمعه أَبْحُرُ وبحور، وبحار، وتصغيره أُبْحِرُ، وهو في الأصل الماء المالح، وقد يُراد به الماء العذب، وبمعناها ورد قوله تعالى:

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِيرَ لَبَنُغًا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١٨٨).

هذا وقد استعمل الصوفية لفظ البحر بمعانٍ رمزية ومجازية، كان منها:

(أ) الحياة .

(ب) المحبة .

(ج) العماء .

(د) الفيض والعطاء .

(هـ) عالم السر .

وبمعنى ما ذكرناه وغيره وردت النماذج الآتية:

يقول النابلسي:

وفاض نحن علينا البحر فامتلات به بواطننا من غير إعواز (١٨٩)

(١٨٧) ديوان الحقائق ج ١ ص ٣١٥، هذا والينبوع لفظ مفرد جمعه ينابيع، وهو عين الماء، أو الجدول الكثير الماء .

(١٨٨) سورة فاطر الآية ١٢ .

(١٨٩) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٥٩ .

ويقول:

هذه النفس كالسّفينة تجري لو تأملت منك في بحر طمس
فاقتلع لوحها بعزمك واغرق يغسل الماء منك آثار رجس (١٩٠)

ويقول:

والنفس إن أَلقت مقاليدها لربها تخرج من الحبس
جوهرة غرقاء في بحرها يقول عنها غيرها نفسى (١٩١)

ويقول:

أنا بالله عارف ومن البحر غارف
بحر علم مقدس منه تبدو المعارف
سُفُن كلُّنا به طاف فيهن طائف
ماء حق صفا ولا شئ فيه يخالف (١٩٢)

ويقول سيدى النابلسى:

ولما استرحنا واطرحنا عناءنا تركنا البحار الزاخرات وراءنا
فمن أين تدرى الناس أين توجّهنا (١٩٣)

ويقول:

وشربتُ من بحر المحبة والولا فرَويت من بحرٍ محيط فائض (١٩٤)

ويقول سيدى الشيخ قريب الله:

إلى كم أنا فى أبحر الوهم عائم أما ثمَّ من بحر الضلالة مسعفى (١٩٥)

(١٩٠) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٦٢.

(١٩١) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٦٧.

(١٩٢) ديوان الحقائق ج ١ ص ٣٣٣.

(١٩٣) ديوان الحقائق ج ٢ ص ١٣٩.

(١٩٤) كشف السر الغامض ج ٢ ص ٤٩.

(١٩٥) رشقات المدام ص ٢٤٤.

ويقول:

بحماكمو يا آل بيت محمد
وأمدُّ كَفَّ الفقر نحو قِراكم
أنا ضيف مَنْ حتَّى أروح لغيركم
يا سيّد الرسل الكرام وعدتّى
بحر عميق لا قرار لعمقه
أنا مُحْتَم من حاجة لسواكم
لغنّاي يا سادات من جدواكم
حاشا وكلاً ليس غير علاكم (١٩٦)
يسرا وعفوا عاجلا فنّداكم
فتداركوا عبداً أتى لجداكم

ويقول الحلاج:

إنى ارتقيتُ إلى طَوْدٍ بلا قدم
وخضتُ بحرًا ولم يرسب به قدمي
حَصْبَاؤُهُ جَوْهَر لم تدن منه يد
شربتُ من مائه ريّاً بغير فم
لأنّ روحي قديماً فيه قد عطشت
له مراق على غيرى مصاعيب
خاضته روحي وقلبي منه مرغوب
لكنّه بيد الأّفهام منْهوب
والماء مُذْ كان بالأفواه مشروب
والجسْم مامسّه من قبل تركيب (١٩٧)

٩ - الأَنْهَار:

النهر لفظ مفرد، جمعه أنهر، وأنهار، ونُهر، وهو لغة: الماء الجارى المتسع؛
وبمعناه ورد قوله تعالى:
﴿مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (١٩٨).

(١٩٦) رشفات المدام ٣٢٠.

(١٩٧) ديوان الحلاج ص ١٦. هذا، والطود هو القمة الروحية، والمرغوب: الملائن، وحصباؤه: حجارته،
وجوهر: حقائق.

(١٩٨) سورة البقرة الآية ٢٥ / ٢٦٦، آل عمران ١٥ / ١٣٦ / ١٩٥ / ١٩٨، النساء ١٣ / ٥٧ / ١٢٢ / والمائدة
١٢ / ٨٥ / ١١٩ / والتوبة ٧٢ / ٨٩ / ١٠٠ / والرعد ٣٥ / إبراهيم ٢٣ / النحل ٣١ / طه ٧٦ / الحج ١٤ /
٢٣ / الفرقان ١٠ / العنكبوت ٥٨ / الزمر ٢٠ / محمد ١٢ / الفتح ٥ / الحديد ١٢ / المجادلة ٢٢ /
والصف ١٢ / التغابن ٩.

هذا وقد استعمل الصوفية لفظ النهر بنفس معناه الأصلي تارة، وبمعانٍ أخرى
رمزية ومجازية تارة أخرى، من بينها ما يأتي:

يقول سيدي النابلسي:

وذكرت كل لطيفة في روضة وهزار دُوح مطرب الترنام
وجداول الأنهار والنّسمات في حركاتها والزّهر في الأكمام (١٩٩)
ويقول ابن عربي:

إلى نهر عيسى حيثُ حلّت ركابهم وحيثُ الخيام البيض من جانب الفم (٢٠٠)
ويقول:

نثر الدّوح علينا في ربّنا نجد زهورا
فانتشّقنا نسماتٍ ونأملنا النّهورا (٢٠١)
ويقول:

عطشى العتيق من الحديد قد ارتوى لما به قصرى على الماء استوى
نهرٌ جرى ويقال عنه أعوجُ وإن استقام كما له الراوى روى (٢٠٢)
ويقول النابلسي:

سكنت والطير لى سمير بها ونهر المياه جارى (٢٠٣)

١٠ - الأودية:

الوادي لفظ مفرد، جمعه أودية، وأواديّة، وأوداء، والعامّة تجمعها على

(١٩٩) ديوان الحقائق ج ١ ص ١٤.

(٢٠٠) ذخائر الأعلام ص ٢٢.

(٢٠١) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٠٦.

(٢٠٢) ديوان الحقائق ج ٢ ص ٢٢٠.

(٢٠٣) نفحات الأزهار ص ٣١٥.

وُدَيَان، وهو فى الأصل منفرج جبال، أو آكام يكون منفذاً للسليل . . . وقد جاء عن الوادى فى القرآن الكريم قوله تعالى:

﴿ فَسَأَلَتْ أَوْدِيَةً يَقْدَرُهَا ﴾ . . . وجاء أيضاً ﴿ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ . . .

هذا وكان الصَّوْفِيَّة قد استعملوا ذات اللفظ بمعان رمزية مفادها الإشارة إلى الحضرة الإلهية تارة، والحضرة النبوية والوادى المقدس تارة أخرى (٢٠٤) . . . وقد ورد عن ذلك فى أشعارهم ما يأتى:

يا صاحبي هذا العقيق فقِفْ به متوالهاً إن كنت لست بواله (٢٠٥)
ويقول غيره:

بالله يا سائق الأظعان فى التَّيِّه حَيَّ الملاعب من لُئع وواديه
وحَيَّ سَكَانه وانزل بناديه (٢٠٦)

ويقول آخر وهو يمدح الرسول صلى الله عليه وسلم:

بوادى المنحنى وبأرض رَامَه مَليح بالحمى علاً خيامه
ظريف كَيْسٌ حسن جميل سخى الكف شيمته الكرامه
لطيف الذات ما أحلاه بدرًا تشنى الرمح حين يرى قَوامه
رئيس سالم من كل عيب بهيج نير وله علامه (٢٠٧)
ويقول ابن عربى:

عَرَّجَ ففى أَيْمن الوادى خيامهم لله دَرَكٌ ما تحويه يا وادى (٢٠٨)

(٢٠٤) ذخائر الأعلام ص ١١٥، والآية الأولى من سورة الرعد - الآية ١٧، والآية الثانية من سورة طه - الآية ١٢.

(٢٠٥) قاموس الأنشيد ص ١٣٣ والعقيق المذكور هو وادى العقيق.

(٢٠٦) قاموس الأنشيد ص ١٤٥.

(٢٠٧) قاموس الأنشيد ص ٢٩٧، وهى من قصيدة فى مدح الرسول ﷺ.

(٢٠٨) ذخائر الأعلام ص ٨٦.

ويقول:

أيا روضة الوادى أجِبْ ربّة الحما وذات الثنايا الغرّيا روضة الوادى (٢٠٩)

ويقول:

يا بانة الوادى أرينا فنّا فى لينٍ أعطاف لها أو قضا (٢١٠)

ويقول:

فارحلّ إلى وادى اللّوى مرتعهم ومصرعى
إنّ به أحبّتى عند مياها الأجرع (٢١١)

ويقول النابلسى:

أيمن الوادى * مشرب الصّادى * إن حدّا الحادى * هاج وجد المغرم الفانى
فادخل النادى * واشهد البادى * دكّ أطوارى * موذن أنّ السوى فان (٢١٢)

ويقول آخر:

ألا أيها الوادى الذى فاح طيبه وحُيت من وادٍ بكل تحية
عسى لك عهد من سعاد قريب لأنك من أجل الحبيب حبيب (٢١٣)

ويقول ابن عربى:

فإذا جئتما وادى منى فالذى قلبى به قد خيما
أبلغا عنى تحيات الهوى كلّ من حل به أو سلما (٢١٤)

(٢٠٩) ذخائر الأعلام ص ١١٥ .

(٢١٠) ذخائر الأعلام ص ١٥٠ .

(٢١١) ذخائر الأعلام ص ١٦٤ .

(٢١٢) ديوان الحقائق ج ١ ص ١٦٩ .

(٢١٣) مشارف أنوار القلوب ص ١٢١ .

(٢١٤) ذخائر الأعلام ص ٢٠١ .

ويقول:

ألا يا بانه الوادى بشاطئ نهر بغداد
شجانى فيك مياّاد طروب فوق مياّاد (٢١٥)

١١ - الجدول:

الجدول لفظ مفرد معناه النهر الصّغير، وجمعه جداول، وهو يفيد عند الصوفية رمزاً - لا حقيقة - فنون العلوم اللدنية التى متعلقها الأعمال الموصّلة إلى الله تعالى (٢١٦)، وبمعناه ورد ما يأتى:

يقول سيدى النابلسى:

ولنا الألسن الكثيرة فينا بلغات حارت بها الأفكار
فكأنّ الذات الشريفة دَوْحٌ وكأنتى من فوقها أطيّار
أتغنّى وتارة أتعنّى ونظام طورا وطورا نثار
وعزام طورا بأحور أحوى حدث حن وجهه الأقمّار
وبهيفاء تارة ذات دلّ شعرها الليل والجبين نهار
وبروض وجدول الماء طورا وبكأس من المدام يُدار (٢١٧)

ويقول:

فجلستُ فى قصرى عليه وكان لى قلبٌ به ولكل قلب مانوى
والماء عذب رائق متدفّق يطفى حرارات القلوب من الجوى (٢١٨)

ويقول:

وجداول الأنهار والنّسمات حركاتها والزهر فى الأكمام (٢١٩)

(٢١٥) ذخائر الأعلاق ص ٢٦٠.

(٢١٦) ذخائر الأعلاق ص ٤١.

(٢١٧) ديوان الحقائق ج ١ ص ١٢.

(٢١٨) ديوان الحقائق ج ٢ ص ٢٢٠.

(٢١٩) ديوان الحقائق ج ١ ص ١٤.

ويقول:

صَفَدْعُ الْمَاءِ نَقَّ يَطْلُبُ مَاءً وَهُوَ فِي الْمَاءِ بَيْنَ رَوْضٍ أَرِيضٍ (٢٢٠)
١٢ - الغدير:

الغدير لفظ مفرد، جمعه غُدُرٌ، وَغُدُرٌ، وَغُدْرَانٌ، وَأَغْدِرُهُ، ومعناه النَّهْرُ،
وقد يُطلق على قطعة من الماء يتركها السيل . . على أن الصوفية استعملوا
ذات اللفظ في معانٍ رمزية مفادها صفاء القلب، وقد يُشار به أيضاً عندهم إلى
ما يدلّ على المولى، حَيْثُ إِنَّهُمْ يُلَاحِظُونَهُ - كما ورد - في كل شيء يروونه، وعن
ذلك.

يقول النابلسي:

هُوَ السَّنَانُ وَالْأَغْصَا ن وَالْغَدْرَانُ لِلصَّادِي
هُوَ الْأَزْهَارُ وَالْأَثْمَا ر وَهُوَ الْيَلُّ وَالْوَادِي (٢٢١)

ويقول غيره:

إِذَا سَكَنَ الْغَدِيرَ عَلَى صَفَاءٍ وَجَنَّبَ أَنْ يَحْرُكَهُ النَّسِيمُ
يَرَى فِيهِ السَّمَاءَ بِلَا مَرَاءٍ كَذَلِكَ الشَّمْسُ تَظْهَرُ وَالنَّجُومُ
كَذَلِكَ قُلُوبُ أَرْبَابِ التَّجَلَّى يَرَى فِي صَفْوِهَا اللَّهُ الْعَظِيمُ (٢٢٢)

١٣ - الثلج:

الثلج مفرد، جمعه ثلوج، وواحدته ثلجة، وهو يفيد في الأصل ما يتجمّد

(٢٢٠) ديوان الحقائق ج ٢ ص ٢٤٦.

(٢٢١) ديوان الحقائق ج ١ ص ١٥٧، وفي مثل هذا المعنى يقول أحدهم.

أَلَا حَظَّهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ رَأَيْتُهُ وَأَدْعُوهُ سِرًّا بِالْمَنَى فَيَجِيبُ

[راجع مشارق أنوار القلوب ص ١٠٧].

(٢٢٢) قاموس الأناسيد.

من ماء السماء ويسقط، وقد ورد بهذا المعنى، وبمعان أخرى رمزية ومجازية، مفادها عند الصوفية أن الوجود الحق للخالق لا للخلق.. وفى معنى ذلك:

يقول النابلسي:

إِنْ حَلَّ قَيْدُ الْكَوْنِ عَنْ كَائِنٍ فَذَاكَ ثَلَجٌ ذَابَ فِي الشَّمْسِ (٢٢٣)
ويقول:

والكائنات كثلجة ذابت بها ماء تفرق بالفنا وترشَّش (٢٢٤)
ويقول الجليلى:

وما الكون فى التمثال إلاَّ كثلجة وأنتَ لها الماء الذى هو نابع
فما الثلج فى تحقيقنا غير مائه وغيران فى حكم دهرته الشرائع (٢٢٥)
١٤ - النَّدَى:

الندى مصدر جمعه أنداء وأندية، وهو فى الأصل المطر ويطلق أيضاً على ما يسقط فى الليل من بخار الماء المتكاثف.. وبهذا المعنى وبمعان أخرى رمزية ورد ما يأتى:

يقول النابلسي:

بكت عيون الندى عليها فافتَرَّ ضحكًا فمُ النَوَّار (٢٢٦)

(جـ) الرياح:

الرياح لفظ مفرد، جمعه أرياح، وأرواح، ورياح، وريح، وجمع الجمع أراويح وأراييح، وهى فى الأصل الهواء أو نسيم كل شىء، وتسمى بالجنوب إذا كانت قبلية، وبالشمال إذا كانت شمالية، وبالصَّبَا إن كانت شرقية، وبالذبُّور إن كانت غربية.

(٢٢٣) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٦٦.

(٢٢٤) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٧٥.

(٢٢٥) الفتوحات الإلهية فى شرح المباحث الأصلية لابن عجيبة ج ٢ ص ٢٠٧.

(٢٢٦) نفحات الأزهار ص ٣١٥.

هذا وقد استعمل الصوفية الألفاظ المذكورة فى معانيها الحقيقية، وفى معانٍ لها رمزية ومجازية، مفادها الفيض الإلهى، والرحمة الربّانية.. ومقام الحرمة، ومقام تمييز الأشياء بحقائقها وعالم الأنفاس (٢٢٧).

وقد ورد عنهم فى ذلك ما تمثله النماذج الآتية:

يقول الشاعر:

هبت رياح وصالها سحرًا بحرائق للشوق فى قلبى
فاهتز غصن الوجد من طرب وتنا ثرت ثمرٌ من الحب (٢٢٨)
ويقول سيدى الشيخ قريب الله:

إذا هبّت الأرياح من نحو طيبةٍ فقد طابت الأرواح وانكشف الخطب (٢٢٩)
ويقول ابن عربى:

أى ريح نسمت ناديتها يا شمالُ يا جنوبُ يا صبا
هل لديكم خبر مما نبا قد لقينا من نواهم نصبا
أسندت ريح الصبا أخبارها عن نبات الشيخ عن زهر الربا
إنَّ مَنْ أمرضه داء الهوى فليعلل بأحاديث الصبا
ثم قالت يا شمالُ خبرى مثل ما خبرته أو أعجبا
ثم أنتِ يا جنوبُ حدّثي مثل ما حدثته أو أعذبا (٢٣٠)

ويقول:

والريحُ تلعبُ بالغصون فتتثنى فكأنّه منها على ميعاد (٢٣١)

(٢٢٧) المنجد وذخائر الأعلام ص ١٥١ / ١٨٠ .

(٢٢٨) مشارق أنوار القلوب ص ٧١ .

(٢٢٩) رشقات المدام ص ٢٧ رقم ٢٢ .

(٢٣٠) ذخائر الأعلام ص ١٨٠ .

(٢٣١) ذخائر الأعلام ص ٢٤٨ .

ويقول:

ألا يانسيمَ الريحَ بَلِّغْ مَهَا نَجْدَ بَأْتَى عَلَى مَا تَعْلَمُونَ مِنَ الْعَهْدِ (٢٣٢)

ويقول:

واستشق الريح من تلقاء أرضهم شوقًا لتخبرك الأرواح أين هُمُ (٢٣٣)

* * *

١ - الصَّبَا:

الصَّبَا مصدرُ مُثَنَّاها صَبَوَان، وصَبِيَان، والجمع صَبَوَات وأَصْبَاء، وهى فى الأصل رِيحٌ مَهَبُّهَا جهة الشرق (مؤنثة)، ويقابلها الدَّبُّور ومعناها الريح إذا كانت غربية، وبمفهومها الرمزى المساوى لمفهوم النسيم المذكور سابقا وردت النماذج الآتية التى تفيد الهبات الإلهية، والفيوضات الربانية، وعالم الأنفاس ممن كانوا بعين التجلّى:

يقول الشاعر:

نعم بالصَّبَا قلبى صَبَاً لِأَحْبَتِي فَيَا حَبَّذَا ذَاكَ الشَّدَا حِينَ هَبَّتِ
سَرْتُ فَأَسَرْتُ لِلْفَوَادِ غُدِيَّةً أَحَادِيثَ جِيرَاتِ الْعَذِيبِ فَسَرْتُ
مُهَيِّمَةً بِالرُّوضِ لَدُنْ رِدَاؤِهَا بِهَا مَرَضٌ مِنْ شَأْنِهِ بَرٌّ عَلَّتِي
لَهَا بِأَعْيَاشَابِ الْحِجَازِ تَحَرُّشُ بِهِ لَا بِخَمْرِ دُونَ صَحْبِي سَكَّرْتِي
تَذَكَّرْنِي الْعَهْدَ الْقَدِيمَ لِأَنَّهَا حَدِيثَةُ عَهْدٍ مِنْ أَهْيَلِ مَوَدَّتِي (٢٣٤)

ويقول الشيخ قريب الله:

نعم قد سرت ريح الصَّبَا من أَحْبَتِي وَقَدْ شَدَّتِ الْأَطْيَارُ مِنْ فَوْقِ دَوْحَةِ (٢٣٥)

(٢٣٢) ذخائر الأعلام ص ٢٥٠.

(٢٣٣) ذخائر الأعلام ص ٢٥٩.

(٢٣٤) قاموس الأناشيد ص ٥٧، هذا والهيمنة الصوت الخفى - راجع المنجد مادة (هَيْن).

(٢٣٥) رشفات المدام ص ٥٨.

ويقول غيره:

ثمّ الصبا صفحاً بساكن ذى الغضا ويصدع قلبى حين هبت هبوبها
قريبة عهد بالحبيب وإنّما هوى كل نفس حيث حلّ حبيبها (٢٣٦)

ويقول الشيخ قريب الله:

برق الحجاز من المدينة لاحاً شغل القلوب وهيم الأرواح
وتنمت ريح الصبا فصبت لها روح المحب من الديار صباحاً (٢٣٧)

ويقول:

يا حضرة فاحت لنا أعطارها جوف الدجى فتعطرت ذكارها
وتنسّم ريح الصبا بصباة لما تفتن فى الحدا شعّارها (٢٣٨)

ويقول ابن عربى:

فقفوت أسأل عنهم ريح الصبا هل خيموا أو استظلوا الضّالّا (٢٣٩)

ويقول:

ما صدقت ريح الصبا حين أتت بالخدع
قد تكذب الريح إذا تسمع ما لم تسمع (٢٤٠)

ويقول:

سألت ريح الصبا عنهم لتخبرنى قالت: ومالك فى الأخبار من أرب (٢٤١)

(٢٣٦) مشارق أنوار القلوب ومفاتيح أسرار الغيوب ص ٣٦ .

(٢٣٧) رشفات المدام ص ٨٦ .

(٢٣٨) رشفات المدام ص ٤٠٢ .

(٢٣٩) ذخائر الأعلام ص ٩١ .

(٢٤٠) ذخائر الأعلام ص ١٦٦ .

(٢٤١) ذخائر الأعلام ص ٢٢٨ .

٢ - النسيم:

النسيم: هي الريح اللينة التي لا تحرك شجراً ولا تُعْفَى أثراً، وقد جاءت الإشارة إلى النسيم في الشعر الصوفي بما يفيد عالم الأنفاس وطيب الحمى، والركون إلى الله. (٢٤٢). . علماً بأن الركون إلى نسيم الأسحار يُعتبر عيباً ومذلة وأنصراًفاً عن الجادة في نظر الصوفية؛ وهم كثيراً ما كانوا يمتأنون في فهمهم لذلك بما ورد في قصة «برخ»، وهو العبد الأسود الذي استقى به سيدنا موسى عليه السلام؛ إذ يُقال: إن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: إن «برخاً» نعم العبد، هو لى، إلا أن فيه عيباً. . قال: يارب، وما عيبه؟! قال، يُعجبه نسيم الأسحار فيسكن إليه ومن أحببني لم يسكن إلى شيء (٢٤٣).

عن هذا النسيم وعن ذلك الفهم وغيره من الحقيقة والمجاز ورد مايتى:

يقول النابلسي:

ماهينمت نماتها وتألقت منها البروق على مرور دهورها (٢٤٤)
ويقول:

وجثة نبتت مما يحلّ لها من المآكل مافى ضَعْفها باس
كالغصن مأسَ به طوراً نسيم صبا وقام طوراً به والغصن مياس (٢٤٥)
ويقول:

يا نسيماً سرت سحرا من شذاها الكون قد عبقا
خبرينا عن أحبّتنا وعن الأهلين والرّفقا (٢٤٦)

(٢٤٢) ذخائر الأعلام ص ٤١.

(٢٤٣) إحياء علوم الدين ج ١٤ ص ١٠٥ - كتاب المحبة والشوق، والأنس والرضا.

(٢٤٤) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٥٥.

(٢٤٥) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٦٤.

(٢٤٦) ديوان الحقائق ج ١ ص ٣٣٩.

ويقول:

وسرت نسمة الحمى فأهاجتُ شوق صبّ ما إن له من حراك (٢٤٧)

ويقول:

بالله بلغ يا نسيم الريح عن
وَأَسْأَلُ بِلُطْفٍ مَنِيتِي عَنِّْي وَلَا
وَأُنْعَتُ لَهُ وَجْدِي الْقَدِيمَ وَصَفَ لَهُ
طَفَحَ الْغَرَامِ عَلَى حَتَّى بِالْهَوَى
وَكْتَمْتُهُ لَمَّا بَدَأَ لِنَوَاطِرِي
وَأَنَا الَّذِي بِهِوَ الْمَلِيحِ تَعَمَّمِي
شوقى وبالف يا نسيم الريح
تأتى بوجهه للمليح قبيح
شغفى وما ألقى من التبريح
صرحتُ فى حبّى لكل صبيح
نور الخباء وملت للتلميح
أبدًا ومن شوقى له توشيحى (٢٤٨)

ويقول:

يأتى النسيم لهم بأخبار الحمى للمسك فاوح فى الهبوب وشاذى (٢٤٩)

ويقول:

أهيم بأنفاس النسيم وإننى بطيب الحمى لا بالنسائم عاطر (٢٥٠)

ويقول:

ونسيم الأمر فينا عايق وأزاهير الربا تبسّم (٢٥١)

(٢٤٧) ديوان الحقائق ج ٢ ص ٨.

(٢٤٨) ديوان الحقائق ج ١ ص ١١٧.

(٢٤٩) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٠٠.

(٢٥٠) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٠٢.

(٢٥١) ديوان الحقائق ج ٢ ص ٦٤.

ويقول:

ونسيمُه هو للغصون الثانى
قصْدُ العناق لغصنها العريان
يأتى المشيبُ بحلة الأحزان (٢٥٢)

إنَّ الخريف هو الربيع الثانى
يُثنى الغصُونُ مجردًا أثوابها
فانهضْ إلى مَرَحِ الشَّيْبَةِ قبل أنْ

ويقول النَّابلسى:

وماله قطُّ من قرار (٢٥٣)

يموج بحرُ النسيم فيها

ويقول غيره:

فجدَّدَ الشوق والمباني
مخبرًا عن عريب بانى (٢٥٤)

نسيم نجد سَرَى سحيرًا
وهبَّ ريح الصَّبَا بروح

ويقول العفيف التلمسانى:

فهل أتيتِ عن الأُحباب بالخبرِ ؟
ذُيولُ بُرْدِكَ رِيًّا نشره العَطِر
به فديتك بين البان والسَّمرِ (٢٥٥)

أُسْكُرْتِ بَانَ الحِمَى يانِمةَ السَّحَرِ
نعم مررتِ بِذاكَ الحىِّ فاكتبتِ
يا روحِ بروحى للحمى وقفى
ويقول الشيخ نجم الدين بن إسرائيل:

أظنه من حىِّ ليلَى رسول
كأنما طاف بكأس الشمول (٢٥٦)

عندى قبول لنسيم القبول
شتتْ شَمْلُ الهَمِّ لما سرى

(٢٥٢) ديوان الحقائق ج ٢ ص ١٧٧ / ١٧٨ .

(٢٥٣) نفحات الأزهار ص ٣١٥ .

(٢٥٤) قاموس الأناشيد ص ٣٨ .

(٢٥٥) كشف السر الغامض ج ١ ص ٣٥١ .

(٢٥٦) كشف السر الغامض ج ١ ص ٣٧٠ .

ويقول الشيخ قريب الله:

وإن هيمنت يوماً عليك نُيْمَةٌ علوت بها أوجاً وواجهك الغرب (٢٥٧)

ويقول الشيخ نجم الدين بن إسرائيل:

وافى النسيم مُضْمَنًا رِيَاكُم فإذا بنى شوقاً إلى رؤياكم
عَبَقًا يَتِيهِ عَلَى الْعَبِيرِ وَإِنَّمَا عُبِقَتْ غَلَائِلُهُ بِنَشْرِ ثَرَاكُم
وَلَّى فِيهِ مِنْ بَشَائِرٍ وَصْلَكُم مَعْنَى وَمَعْنَاهُ شَذَا رِيَاكُم (٢٥٨)

ويقول غيره:

أَيُّ النَّسِيمِ سَرَى بِأَيِّ خِيَامٍ متوشحاً بذوائب الأعلام
وَأَفَى وَقَدْ عُبِقَتْ بِنَشْرِ أَحِبَّةٍ نفحاته لا عرعر وثمان
فَطَرِبْتُ لَا أَدْرِي بِأَيِّ لَطِيفَةٍ وسكرتُ لا أدري بأَيِّ مُدَامٍ
لَوْلَا هَوَى لِلرُّوحِ بَيْنَ خِيَامِهِمْ مَا كُنْتُ وَلَا عَاً بِكُلِّ خِيَامٍ (٢٥٩)

ويقول غيره:

وَنَوْلَا مَعَانَ مِنْ جَمَالِكَ تَجَلَّى وَإِلَّا فَمَا حُزْوَى وَمَا سَفْحَ عَاقِلٍ
أَحْبَابِنَا حَمَلْتُمْ الْكَوْنَ بِهَجَةٍ فَأَصْبَحَ أَبْهَى مِنْ حُلِيِّ الْخِلَاقِلِ
وَعَطَرْتُمْ أَرْجَاءَهُ بِنِيحِكُمْ فَفَاحَ بِأَذْكَى مِنْ عَبِيرِ الْغَلَائِلِ
فَمَنْ أَجْلَكُم أَشْتَاقَ سَلْعًا وَحَاجِرًا وَإِلَّا فَمَا لِي وَالرُّبَا وَالْجَنَادِلِ (٢٦٠)

ويقول الشيخ قريب الله:

وَأَنْفَاسُ النَّسِيمِ تَهْبِ دَوْمًا تَحْشُكُ لِلنَّهْوِضِ بِلَا تَنَاءٍ (٢٦١)

(٢٥٧) رشفات المدام ص ٢٨.

(٢٥٨) كشف السر الغامض ج ١ ص ٣٧٠.

(٢٥٩) مشارق أنوار القلوب ومفتاح أسرار الغيوب، ص ٢٦ طبع دار صادر بيروت.

(٢٦٠) مشارق أنوار القلوب ص ٥١، ولزيد من النماذج راجع: رشفات المدام ص ٢٨ / ٣٥ / ٧٢ / ٨٢

٨٧ / ٨٩ / ٩٦ / ١١٨ / ١٤٤ / ٢٤٤ / ٢٥٠ / ٢٥٩ / ٣٧٣ / ٢٩٨ / ٣٠٥ / ٣٢٤ / ٣٦٩ / ٣٧٢ / ٤١٦.

(٢٦١) رشفات المدام ص ١٧.

٣ - الرد:

استعمل الصوفية لفظ (الرد) للإشارة إلى المناجاة الإلهية التي تحصل عقب الشهود؛ علماً بأن اللفظ في الأصل معناه صوت الحباب، وعنه وردَ رمزاً وحقيقة ما يأتي:

يقول الشاعر:

ألا ليت شعري هل سُلِّمَ مقيمة بوادي الحمى حيث المتيم والع ؟
وهل لعلَّ الرعدُ الهتون بلعلَّ وهل جادها صوب من المزن هامع؟ (٢٦٢)

ويقول ابن عربي:

رقت حواشيها ورقّ نسيمها فالغيم يُبرق والغمامة تُرعد (٢٦٣)
والمعنى أنه لطفت معاني ما تحمله النفس من الظرف والأدب، ولطف عالم الأنفاس منها في حالتها المشاهدة والخطاب المشار إليهما بما ورد في الأثر الذي نصّه: «وجاء ربك في ظلّل من الغمام»، وما نصّه أيضاً: «كان الله في عماء، مافوقه هواء وما تحته هواء» (٢٦٤).

ويقول ابن عربي أيضاً:

لمعت لنا بالأبرقين بروق فصفت لها بين الضلوع رعود (٢٦٥)

ويقول ابن عربي:

أضاء بذات الأضا بارق من النور في جوها خافق
وصلصل رعد مناجاته فأرسل مدراره الوادق (٢٦٦)

(٢٦٢) قاموس الأناشيد ص ١٥٥ .

(٢٦٣) ذخائر الأعلام ص ١٥٥ .

(٢٦٤) ذخائر الأعلام ص ١٥٥ .

(٢٦٥) ذخائر الأعلام ص ٤٠ .

(٢٦٦) ذخائر ص ١٩٠ .

ويقول ابن عربي:

كأن الرعود للمع البروق وسير الغمام لصوب المطر (٢٦٧)

(د) الضياء:

١ - الشمس: الشمس تصغيرها شُمَيْسَة، وجمعها شُمُوسٌ، وهى فى الأصل الكوكب النهارى الذى يُشكل كرة غازية تقدر درجة حرارتها السطحية ب (٦٠٠٠)، والداخلية ببضعة ملايين، وقطرها ١٠٩ أضعاف قطر الأرض. وقد وردت الإشارة إلى الشمس فى عدد من آيات القرآن الكريم، كان منها قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٦٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٦٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُقَوْمُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢٦٨).

هذا وبما أن الشمس هى النور الأكبر الذى يحق نوره كل نور، فقد أكثر الصوفية من ذكرها لا بمفهومها اللغوى، ولكن بمفهوم لها رمزى، يُشير غالباً إلى نور المولى عز وجل، إذ هو كما وصف نفسه: ﴿ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (٢٦٩). كما يُشير إلى ظهور العلوم القطبية التى عليها مدار علوم العالم، وإلى مقام العزة والكبرياء (٢٧٠).

(٢٦٧) ذخائر الأعلام ص ٢١١.

(٢٦٨) سورة الأنعام - الآيات من ٧٦ - ٧٩.

(٢٦٩) سورة النور الآية ٣٥.

(٢٧٠) المنجد، وذخائر الأعلام ص ١٨٤ / ٢٣٤، هذا، وبما أن الشيء بالشيء يُذكر، فقد كان فيلون اليهودى PHILON [١٣ - ق/ م - ٥٤م] يُسمى الله تعالى: شمس الشموس، والشمس المعقولة للشمس المحسوسة، متأثراً فى ذلك بأفلاطون. [راجع قاموس الفلاسفة للدكتور جمال هاشم، طبع الدار البيضاء بالمغرب، سنة ١٩٩١ ص ٣٣، وراجع فلسفة وحدة الوجود تأليف الاستاذ الدكتور حسن الفاتح].

وقد ورد عن الشمس بِمعَانِيهَا الرمزية والحقيقية فى شعر المتصوفة، مائثله
النماذج الآتية:

يقول الشيخ عبد الغنى النابلسى:

شمس وعن علمها كل الورى ظهورا
كأنهم ظلال وأفياء (٢٧١)
ويقول:

أنا شمسهم والنور يَبُـ
فى كل مرتبة لهم
دو لى بهم فى كل بدر
حسب المقام وحسب ذكر (٢٧٢)
ويقول:

هم حجاب لنا عليهم كَيْفُ
ظلمات ونحن فى نور حق
حاجبٌ من ظهور شمس النهار
هو عنهم بكونهم متوارى
كلما أشرقت لنا الشمس منهم
أظلمت عندهم على الأبصار (٢٧٣)
ويقول:

شمس بها كلّ الشمس تنورّت
منها ولاحت فى ذوات بدورها (٢٧٤)
ويقول النابلسى:

شمس بطلعتها خفافيش الورى
عميت وكان الطرف منها أعمشاً (٢٧٥)

(٢٧١) ديوان الحقائق ج ١ ص ٣٢.

(٢٧٢) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٢٣.

(٢٧٣) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٣٢ / ٢٣٣.

(٢٧٤) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٥٤.

(٢٧٥) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٧٥.

ويقول:

وفى الغيب غيب الغيب اختفت
ونحن الخفافيش فى نورها
هى الذات ذات الوجود الذى
ولم نُورٍ منها سوى أمرها
على الكل شمس فلا تطلع
نقوم لها ولها نركع
إذا ما تبدت لها نخشع
ونحن على وجهها برقع^(٢٧٦)

ويقول:

شموسك يا سلمى علينا بوازع
جلا ليبتها الأكوان تكشف تارة
تجلت فأفتتنا فكنا ولم نكن
فنحن بهن المترعات الفوارغ^(٢٧٧)
أم النعم المستشرفات الموابغ
وتستر أخرى والمعانى نوابغ

ويقول:

شمس هذا الكون طالعة
ذاتها من ذات لا بسها
وهى من أنوار بهجته
جذبت روح الذى رمقا
وهما فى النشأة افترقا
بالعطايا تملأ الأفقا^(٢٧٨)

ويقول ابن عربى:

تشرق الشمس إذا ما ابتسمت
ربّ ما أنور ذاك الحببا^(٢٧٩)

ويقول:

طلعت شمسنا على الأفلاك
فانمحت ظلمة النفوس الحلاك^(٢٨٠)

(٢٧٦) ديوان الحقائق ج ١ ص ٣١٦.

(٢٧٧) ديوان الحقائق ج ١ ص ٣٢٣.

(٢٧٨) ديوان الحقائق ج ١ ص ٣٣٩.

(٢٧٩) ذخائر الأعلاق ص ١٨٤.

(٢٨٠) ديوان الحقائق ج ٢ ص ٨.

ويقول:

إن تكن بالله قائم لم تكن بل أنتَ هو
أنتَ ظلّ الغيب من أسما ئه والشمس هو

* * *

أشرقت أنوارُ سلمى فظهرنا كلنا
يا خفافيش التجلّى ما تبدّى غير هو (٢٨١)

ويقول محيى الدين بن عربى - وهو يشير إلى أن مفهوم الذكر عنده وعند أمثاله لا يكون إلا بعد نسيان (٢٨٢)، وأن من فى النفس والجوانح والفكر لا يُنسى ولن يُنسى (٢٨٣) - يقول:

بذكر الله تزداد الذنوب وتنطمس البصائر والقلوب
وترك الذكر أفضل كلّ شيء وشمس الذات ليس لها غروب (٢٨٤)

(٢٨١) ديوان الحقائق ج ٢ ص ٢٠٣، هذا، ولنا شرح على هذه الأبيات. فليراجع فى كتاب فلسفة الشطح عند الصوفية.

(٢٨٢) إلى مثل هذا المعنى يشير البيت الآتى:

الله يعلم أنى لست أذكره وكيف يذكره من ليس ينه
ويشير أيضاً قول الشاعر:

عجبت لمن يقول ذكرتُ ربّى فهل أنسى فأذكر ما نيتُ
شربتُ الحبّ كأساً بعد كأس فما نَقَدَ الشراب ولا رويتُ

[راجع الرمز الشعري ص ٣٤١، وكتاب الصناعتين للعكرى ص ٣٩٥، ومجلة الأزهر المجلد السابع ص ٦٤٣].

(٢٨٣) هذه إشارة إلى قول سمنون الحب:

لا لائى أنساك أكثر ذكراك ولكن بذاك يجرى لسانى
أنت فى النفس والجوانح والفكر وأنت المنى بكل مكان
[راجع عقلاء المجانين لجبران جبور ص ٨٦ - طبع دار الجيل بيروت].

(٢٨٤) شرب الكأس ج ٢ ص ٢٨.

ويقول ابن عربي:

كأنها شمس ضحى في حملٍ
إن حمرت برقعتها أو سفرت
قاطعة أقصى معالي الدرج
أزرت بأنوار الصباح الأبلج (٢٨٥)

ويقول:

وقالوا الشموس بدار الفلك وهو منزل الشمس إلا الفلك (٢٨٦)

ويقول سيدى النابلسي:

شمس لها قلب الموحّد مَطْلَع
ظهرت علىّ ولات حين تأمل
ولها النواظر مغرب والمسمع
فالبرق يلمع والحوادث يلمع (٢٨٧)

ويقول سيدى النابلسي:

إنّ شمسى من طاقتى فى طلوع
وهى أيضاً من كل طاقة عبد
قف بنا ساعةً روّيدك يأمن
وتعطّف على ذواتٍ سكارى
يترجّون نظرةً تحتويهم
ثمّ سقّهم إلى حماك قيولا
كل وقت قد أعدمتم مجموعى
تتجلى كمثّل برق لموع
هو بى سائر بغير رجوع
بك ما بين يقظة وهجوع
بكمال الجود بعد الركوع
واسقّهم منك رائق الينبوع (٢٨٨)

(٢٨٥) ذخائر الأعلام ص ٢٣٤.

(٢٨٦) ذخائر الأعلام ص ٢٤٤.

(٢٨٧) ديوان الحقائق ج ١ ص ٣١٠.

(٢٨٨) ديوان الحقائق ج ١ ص ٣١٥، هذا ولزيد من النماذج عن الاستعمالات الرمزية لمفهوم الشمس عند

الصوفية يمكن مراجعة مايلي: رشفات المدام ص ٨٦ / ١٦٤ / ٢١١ / ٢١٢ / ٢٣٨ / ٢٣٩ / ٢٤٤ / ٢٦٣

٢٦٧ / ٢٧٢ / ٢٨٥ / ٢٨٨ / ٣٠٤ / ٣١٢ / ٣٢١.

٢ - القمر:

القمر لفظ مفرد، جمعه أقمار، وهو كوكب يتحد نوره من الشمس فينعكس على الأرض، فيرفع ظلمة الليل، علماً بأن هذا الكوكب إنما يُسمى قمرًا بعد ثلاث ليال إلى آخر الشهر، أما قبل ذلك فهو هلال. . وقد سُمِّي القمر بهذا الاسم لبياضه (٢٨٩).

ورد ذكر القمر في القرآن الكريم في عدد من الآيات، كان منها قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّارَهُ الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ (٢٩٠).

وقوله تعالى:

﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾ (٢٩١).

وقوله تعالى:

﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾ (٢٩٢).

وقوله تعالى:

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ (٢٩٣).

وقوله تعالى:

﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ (٢٩٤).

وقوله تعالى:

﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (٢٩٥).

(٢٨٩) المنجد.

(٢٩٠) سورة الأنعام - الآية ٧٧.

(٢٩١) سورة الأنعام - الآية ٩٦.

(٢٩٢) سورة الأعراف - الآية ٥٤.

(٢٩٣) سورة يونس - الآية ٥.

(٢٩٤) سورة يوسف - الآية ٤.

(٢٩٥) سورة الرعد - الآية ٢.

وقوله تعالى:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ (٢٩٦).

هذا وقد استعمل الصوفية لفظ القمر في معناه الحقيقي تارة، وفي معانٍ أخرى تارة ثانية، عنوا بها التجلّي الإلهي، والنور الربّاني، والذات المقدسة، والجمال المطلق... ذلك أنهم كانوا وما يزالون يشاهدون محبوبهم في كل شيء لآحَ للعين مرآة، وقد عبر عن ذلك بعضهم - كما سبق أن ذكرنا - فقال:

أرى كل شيءٍ لآحَ للعين مرآة	أشاهد فيه وجه من أنا أهواه
فهل عاشق إلا لأوجهك عشقه	وهل نفس إلا سرى منك رياه
فلا ذاكرٌ إلا لأجلك ذكره	ولا راحلٌ إلا لقصدك مسراه
ولا شيء إلا أنت فيه مُمَثَّلٌ	مقيمٌ وإن لاحت لعيني أشباه (٢٩٧)

ويقول غيره:

لقد ظهرت فما تخفى على أحد	إلا على أكمه لا يعرف القمر
لكن بظنت بما أظهرت محتجباً	وكيف يُعرف من في عينه استرا (٢٩٨)

ويقول:

ولى قمر فى أرض نجد محلّه	على أنه قد أحجل الشمس والبدر
ولما تبدى حسنه وجماله	ولاح لعيني نور طلعت الغرا
وهبت له روحى وقلت لك الحشا	محلاً أيا من حنه حير الفكر
إذا قال: يا عبدى، أقول: ذكرتنى	وسميتنى عبداً وشرفتني قدراً
ومن أنا يامولاي حتى ذكرتنى؟! (٢٩٩)	لقد تم إسعادى وذا أول البشرى (٢٩٩)

(٢٩٦) سورة إبراهيم - الآية ٣٣.

(٢٩٧) مشارق أنوار القلوب ص ٩١.

(٢٩٨) مشارق أنوار القلوب ص ١٢٤.

(٢٩٩) قاموس الأناشيد ص ١٩٥.

ويقول النابلسي:

قمر الغيب بدا في أفقى
وفروضى حزمت فيه كذا
فإذا كنتُ فكونى خطأ
وامتلا الكأس، ولا كأس هنا
والتماثيل عليها عكفت
ويقول:

قمر من فوق غُصْنِ نقا
هذه الأكوان طلعت
يتجلى سبحان مَنْ خلقا
كل من قدهام فيه رقى (٣٠١)

ويقول:

جئنا إلى الحسن المعروف بالراعى
يرعى بهمته مَنْ زاره وبما
وجه تبدى كبدراً، بل كشمس ضحى
يميط ستر تراب الكون عن قمر
إليك يا كوكب القدس الذى سطعت
قوم أتيناك نبغى من علاك قرى

ويقول ابن عربى:

يا قمرًا فى شفق من خفر
فى خدّه لاح لنا منتقبا (٣٠٣)

(٣٠٠) ديوان الحقائق ج ٣ ص ٣١٢.

(٣٠١) ديوان الحقائق ج ١ ص ٣٣٨.

(٣٠٢) ديوان الحقائق ج ١ ص ٣٢٠.

(٣٠٣) ذخائر الأعلاق ص ١٤٣، هذا، ويقول ابن عربى: إن القمر حالة بين البدر والهِلال.

ويقول النابلسي:

قمر لانضمام فيه اجتلا يَبْتَهُ ذَوَاتُنَا تَيِّينَا
وإذا أظلم الكيان عليه أطلعت الغيوب حيناً وحيناً (٣٠٤)

٣ - البدر:

البدر جمعه بدور، وهو القمر المثلئ.. وقد ورد اللفظ في أشعار الصوفية
وتعبيراتهم بمعنى النور الإلهي والتجلّي الربّاني تارة، وبمعانٍ متنوعةٍ تارةً أخرى..
وعن ذلك:

يقول سيدي النابلسي:

قلوب متى منه خلت فنُفوس لا حرف وسواس اللعين طروس
وإن ملئت منه ومن نور ذكره فتلك بدور أشرقت وشموس (٣٠٥)

ويقول النابلسي أيضاً:

أزال عن الوجه الجميل قناعه وأظهر فينا علمه واطّلاعه
فزالت جميع الكائنات حقيقة وصار أفتراف الكلّ عندي اجتماعه
مليح له منه عليه شواهد متى أمر المضي بامر أطاعه
هو الشمس أضحي والجميع ظلاله هو البدر أمسى كل شيء شعاعه
رأت عيوني البصرات عيونه وأدركت باعى في التناول باعه (٣٠٦)

ويقول:

بدر تمّ لاح في الغسق فوق غصن بالجمال سُقي

(٣٠٤) كشف السر الغامض ج ١ ص ٣٩٦.

(٣٠٥) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٦٢.

(٣٠٦) ديوان الحقائق ج ١ ص ٣٢١.

وبه الألباب هائمة
عطرت روضى نسائمه
خطفته منه بارقة
فأدارت كأس خمّرتّه
وأثارت عرّف روضته
ويقول:

أنا بدر الليلة الظلّماء لا
ويقول ابن عربى:

كل بدر إذا تناهى كمالا
غير هذى فما لها حركات
ويقول:

طلع البدر فى دُجى الشعر
غادة تاهت الحسان بها
ويقول:

هيهات ليس لهم معنى سوى خلدى
فحيث كنت يكون البدر فارتقب (٣١١)

تعاليت من بدر على القطب طالع
وليس له بعد الطلوع أفول (٣١٢)

(٣٠٧) ديوان الحقائق ج ١ ص ٣٣٩.

(٣٠٨) ديوان الحقائق ج ٢ ص ٢٣٢.

(٣٠٩) ذخائر الأعلام ص ٢٠٨.

(٣١٠) ذخائر الأعلام ص ٢٢١.

(٣١١) ذخائر الأعلام ص ٢٢٩.

(٣١٢) ذخائر الأعلام ص ٢٥٣.

٤ - الهلال:

الهلال لفظ مفرد، وجمعه أهله (على القياس) وأهاليل (نادرة) . . وهو غرة القمر، ويُسمى هلالاً لليلتين من أول الشهر، أو إلى ثلاث لَيَالٍ أو إلى سبع لَيَالٍ، ولليلتين من آخر الشهر، أى من ليلة ست وعشرين، وسبع وعشرين منه إلى آخره. وفى غير ذلك هو القمر.

هذا وقد ورد لفظ الأهلة فى القرآن الكريم فى قوله تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ (٣١٣).

وبهذا المعنى القرآنى وبمعان أخرى رمزية ومجازية تشير إلى الجمال الإلهى، والتجليات الربانية (٣١٤) وغيرها - ورد ما يلى:

يقول سيدى النابلسى:

أنا شمسهم والنور يبدو لى بهم فى بدر
حب الهلال ورتبة القم ر الذى فى الأفق يجرى (٣١٥)

ويقول آخر:

سفرت عن الوجه الجميل فأسفرا فبدا هلالُ الحن منها مقمرا
ودنت فكاشفت القلوب بسرها فقت شراب الوصل منها كوثرها
فشربت راح الروح كأساً مثرعا ولبت سر الحن ثوباً أحمرها
ورأيتها فى كل شئ أبصرت عيناى حتى صرت كلى مبصرا (٣١٦)

ويقول ابن عربى:

ما ظلعت أهلة بأفق ذاك المطلع

(٣١٣) سورة البقرة - الآية ١٨٩ .

(٣١٤) ذخائر الأعلام ص ١٦١ .

(٣١٥) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٢٣ .

(٣١٦) مشارق أنوار القلوب ص ٦٣ .

إِلَّا وَدَدْتُ أَنَّهُمْ ————— مِنْ حَذَرٍ لَمْ تَطْلُعْ (٣١٧)

٥ - النجوم والكواكب:

النجم لفظ مفرد، جمعه نُجُومٌ وأنْجُمٌ، وأنْجَامٌ، ونُجْمٌ، ومعناه عند التقييد: الكوكب، وعند الإطلاق: الثريا. . . علماً بأن الكوكب لفظ مفرد جمعه كواكب، ويطلق لفظ الكوكبة على النجوم، وعلى الزهرة (٣١٨). وقد ورد لفظ النجوم والكواكب في عدد من الآيات القرآنية منها قوله تعالى:

﴿وَعَلَّمَنَّا وَيَالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (٣١٩)﴾

وقوله تعالى:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٣٢٠﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ (٣٢٠).

وقوله تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ (٣٢١).

وقوله تعالى:

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾ (٣٢٢).

وقوله تعالى:

﴿كَأَنَّهُا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ (٣٢٣).

(٣١٧) ذخائر الأعلام ص ١٦١.

(٣١٨) مادة (نجم) و(كوكب) - راجع المنجد.

(٣١٩) سورة النحل - الآية ١٦.

(٣٢٠) سورة الطارق - الآيتان: ٣ و ٢.

(٣٢١) سورة الأنعام - الآية ٩٧.

(٣٢٢) سورة الواقعة الآية - ٧٥.

(٣٢٣) سورة النور الآية - ٣٥. وراجع معاني كلمة (مباركة) واستعمالاتها في الغنية للجبلائي ج ١ ص ١٨٩

طبع ١٣٧٥هـ..

وقوله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكَوْكَبَ﴾ (٣٢٤).

وقوله تعالى:

﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ (٣٢٥).

وقوله تعالى:

﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ أُنثَرَتْ ﴿٢﴾﴾ (٣٢٦).

هذا، والصوفية وإن استعملوا لفظي الكواكب والنجوم في معانيهما الأصلية فقد استعملوهما كذلك في معانٍ رمزية ومجازية عنوا بها النور المطلق، وقد يُراد بالنجم عندهم حفظ ما تحمله العلوم في تعقّلاتها على اختلاف ضروبها (٣٢٧).

وقد ورد في شعرهم عن ذلك ما يأتي:

يقول سيدي النابلسي:

ثلاث عليها يدور وجود وحق ونور
وطوراً نرى هكذا نجوم شמוש بدور (٣٢٨)

ويقول:

وهل نور النجوم يلوح إلّا على مقدار إدراك المآقي (٣٢٩)
ويقول سيدي الشيخ قريب الله:

يلوح من الشّرق المقدّس كوكب عسى رحمة جاءت وإشراق موكب (٣٣٠)

(٣٢٤) سورة الأنعام - الآية ٧٦.

(٣٢٥) سورة الصافات - الآية ٦.

(٣٢٦) سورة الانفطار - الآيتان: الأولى والثانية.

(٣٢٧) ذخائر الأعلام ص ٨٢.

(٣٢٨) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٣٠.

(٣٢٩) ديوان الحقائق ج ١ ص ٣٤٢.

(٣٣٠) رشقات المدام ص ٣١.

ويقول ابن عربي:

فياراعى النجم كن لى نديماً ويساساهر البرق كن لى سميراً (٣٣١)
ويقول النابلسي:

زينة الله فى العوالم رُمز وهى من عين عين عينك غمز
طالعات نجومها فى وجوه أسفرت أو تعبت تستفز (٣٣٢)
ويقول النابلسي أيضاً:

فلالى كم ترى نجوم البرايا هات قل لى: متى ترى ضوء شمسي (٣٣٣)
ويقول النابلسي:

ولسين السماء ماء مضاف لحياة النفوس بالإنفاس
وهى حرف لها انحراف المعانى وحشة أدمجت مع الإيناس
سطعت فى الورى نجوم هداها فترأت لراسخ القلب راسي (٣٣٤)

٦ - البرق:

البرق نور يلمع فى السماء على إثر انفجارٍ كهربائى فى الحباب، وقد أكثر الصوفية من الإشارة إليه بمعناه الأسمى تارة، وبمعان رمزية تارة أخرى، وقد عونا بها الأثر الإلهى فى الخلق، والوجود المجازى فى الكون، والفيض الإلهى على العباد، وقد يُطلق عندهم على التجلى الإلهى، وعلى الشهود الذاتى، وعلى الروح الإنسانية (٣٣٥). . وبهذه المعانى المذكورة وبغيرها وردت النماذج الآتية:

(٣٣١) ذخائر الأعلاق ص ٨٢.

(٣٣٢) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٥٩.

(٣٣٣) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٦١.

(٣٣٤) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٦٧.

(٣٣٥) المنجد وذخائر الأعلاق ص ١٥٢ / ٧٥ / ١٢٠.

يقول ابن عربي:

فأبدت ثناياها وأومض بارق
ويقول سيدي النابلسي:

أنا البرق اللامع وأنت أيضاً
إلى كم أنت فى كفه فإئنى
وهذا الفرق بينك قل وبينى
ويقول النابلسي:

يا خليلي هذه هى سلمى
ويقول النابلسي:

رويدك أيها البرق اللامع
ترفرف لمحة وتغيب أخرى
ألاهل أنت بهجة وجه سلمى
أم ابتسمت عشية ودعوتنا
ويقول ابن عربي:

رأى البرق شرقياً فحنَّ إلى الشرق
فإن غرامى بالبريق ولمحة
ولو لاح غريباً لحنَّ إلى الغرب
وليس غرامى بالأماكن والترب (٣٤٠)

(٣٣٦) ذخائر الأعلام ص ٢٧ .

(٣٣٧) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٨٠ .

(٣٣٨) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٨٢ .

(٣٣٩) ديوان الحقائق ج ١ ص ٣١٠ .

(٣٤٠) ذخائر الأعلام ص ٦٥ وراجع فى نفس الصفحة وفى ص ٤٤ ما جاء عن الفرق بين رؤية الحق فى الخلق ورؤية الخلق فى الحق .

ويقول النابلسي:

وما البرق إلّا نحن إذ نحن أمره
ويقول سيدى النابلسي:

أيها البرق اللّـمـوع
تختفى طوراً وتبـدو
لم يزل لى بك وجد
أنت هذا الجسم مِنى
وقيامى وقعودى
ويقول:

يا بريق الغور قف نفساً
إن تجز يوماً بلى سلم
ويقول:

كلما أومضت بروق رباهم
ويقول:

خاطب بروق الروابى تكف عنى وميضاً
وقل لَنـمـة ذاك الحمى تجود علينا
ويقول:

جميع البرايا هى اليلـمـع

وبرق الوجود بها يلمع

(٣٤١) ديوان الحقائق ج ٢ ص ٤٥.

(٣٤٢) ديوان الحقائق ج ١ ص ٣١٤.

(٣٤٣) ديوان الحقائق ج ١ ص ٣٣٨.

(٣٤٤) ديوان الحقائق ج ٢ ص ٨.

(٣٤٥) ديوان الحقائق ج ٢ ص ١١٦.

وما ذلك البرق غير الذى به الأرض قامت كذا والسَّما
هو الأمر فى لحظة مُسرِع
فيخفض هذا وذا يرفع (٣٤٦)
ويقول النابلسي:

بروق الحى لَمَّاعه ونفس الصَّبِّ طَمَّاعه
وكتمان الهوى طاعه ولكن هذه السَّاعه

* * *

رأينا وجهه من نهوى ونلنا الرتبة القصوى
ومنا حفت الدعوى وأبدى النور شعشاعه
ترنم أيها الحادى أنا فى يمنية الوادى
ولع البرق لى بادى ودنيا الغير خداعه (٣٤٧)

ويقول النابلسي:

إن هذا الضياء وهذا البريقا
للمى فاسلك إليها الطريقا
وإذا الكون أظهر التزويقا
لا تروقنك الرياض الأنيقا
ت فمّن دونها ربا ودخول (٣٤٨)
ويقول سيدى الشيخ قريب الله:

وإن برقت بالشرق منه بوارق
أضاء لها الشرق المقدس والغرب (٣٤٩)
ويقول سيدى النابلسي:

وبرق الحمى هذا الوجود وميضه
ولكن بما تجنيه تعمى البصائر (٣٥٠)

(٣٤٦) ديوان الحقائق ج ١ ص ٣١٦.

(٣٤٧) ديوان الحقائق ج ١ ص ٣١٩.

(٣٤٨) ديوان الحقائق ج ٢ ص ٥٠.

(٣٤٩) رشقات المدام ص ٢٨.

(٣٥٠) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٠٢.

ويقول النابلسي:

فهمت بوجودي إذ فهمت رموزه فها أنا للبرق اللامع أسايرُ (٣٥١)

ويقول النابلسي:

رأينا نوره أشرق فكنا برقه الأبرق
ولا نجد ولا أبرق سوى الإبريق والكوب (٣٥٢)

ويقول النابلسي:

علقت بمن أهواه عشرين حجة ولم أدر من أهوى ولم أعرف الصبرا
إلى أن تراءى البرق من جانب الحمى فنعمنى يوماً وعذبني دهرًا (٣٥٣)

ويقول سيدي الشيخ قريب الله:

وتبصر لامعا يبي بلمع وفي الملكوت تسمع للنداء (٣٥٤)
ويقول:

هذه الكائنات أم هي حانة أسكرتنا كئوسها الملائنة
أم هو البرق برق نور التجلي خاطف كل من رأى لمعانه (٣٥٥)
ويقول:

عليك بروحك السر الإلهي إلى كم أنت عن ذا السر لاهي
وروحك يا بن آدم ليس تفنى وتلك لك البقاء بلا تناهي
هي البرق اللامع خلال بيت بنته بالتراب وبالمياه

(٣٥١) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢١٩ .

(٣٥٢) ديوان الحقائق ج ١ ص ٧٣ .

(٣٥٣) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٣٢ .

(٣٥٤) رشفات المدام ص ١٦ .

(٣٥٥) ديوان الحقائق ج ٢ ص ١٩١ .

وأنت الروح وهى عليك جاءت
ويقول ابن عربى:

بالجزع بين الأبرقين الموعد
لا تطلبن ولا تنادى بعده
ويقول النابلسى:

كلما شمتُ بريقاً لامعاً
ويقول النابلسى:

شمس منها برق الهدى فى ظلام
ويقول:

عفيف الذيل لا تطمع بوصلٍ
ويقول ابن الفارض:

أبرقُ بدءاً من جانب الغور لامع
ويقول غيره:

رأى البرقَ مجتازاً فبات بلالِبٌ
وقد عاج فى أطلالها غير ممسك
وكنْتُ جَدِيراً حين أعرف منزلاً
وأصْبَاه من ذكرِ المليحة ما يُصْبى
لدمع ولا مصْنَع إلى عَذَلِ الركب
لآل سُلَيْمى أن يُعْنَقْنى صحبى

(٣٥٦) ديوان الحقائق ج ٢ ص ٢٠٥ .

(٣٥٧) ذخائر الأعلاق ص ١٥٢ / ١٥٣ .

(٣٥٨) ديوان الحقائق ج ٢ ص ٢٣٠ .

(٣٥٩) ديوان الحقائق ج ٢ ص ٢٤٥ .

(٣٦٠) ديوان الحقائق ج ٢ ص ٢٤٧ .

(٣٦١) كشف السر الغامض للنابلسى ج ١ ص ٢٦ .

عَدَّتْنَا عَوَادَى الْبُعْدِ عَنْهَا وَزَادَنَا بِهَا كَلَفًا أَنْ الْوَدَاعَ عَلَى عَثَبٍ
وَبَى ظَمًا لَا يَعْرِفُ الْمَاءَ دَفَعَهُ إِلَى نَهْلَةٍ مِنْ رَيْقِهَا الْخَصِرَ الْعَذَبَ (٣٦٢)

٧- الشمعة:

الشمع جمع، مفردة شَمْعَة (بفتح الميم وسكونها)، وهو وإن كان فى الأصل
بمعنى موم العسل، أو الشحم، أو غير ذلك مما يُدبر لِيُتَضَّأَ به (٣٦٣) ... إلا أن
الصوفية حين استعملوه قصدوا به الروح الواردة فى قوله تعالى:
﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ (٣٦٤).

كما قَصَدُوا به الفِطْرَة الإنسانية الحليمة، والقابلية الأصلية الطاهرة، وبهذا
المعنى الرمزى وردت النماذج الآتية وغيرها:

يقول سيدى النابلسى عن الشمعة بمعنى الروح:

يا شمعة هى فى كل الفوانيس يخالف العقل هذا فى التقائيس (٣٦٥)
ويقول سيدى النابلسى عن نفس المعنى:

شمعة النور لم تزل فى اشتعال وعليها الجميع كالفانوس (٣٦٦)
ويقول سيدى النابلسى عن نفس المعنى أيضاً:

شمعتى أشرقى بنورك ربّى وعليها حواسدى كالفراش

(٣٦٢) مشارق أنوار القلوب ص ٣٦، ولمزيد من النماذج راجع رشقات المدام ص ٣٥ / ٣٧ / ٤٢ / ٦٣ / ٧٢ / ٨١ / ٨٦ / ٩٦ / ١١٤ / ١٣٩ / ١٤٢ / ١٤٤ / ١٥٦ / ١٧٠ / ١٨٦ / ٢٠٤ / ٢٢٥ / ٢٣١ / ٢٣٤ / ٢٤٧ / ٢٥٠ / ٢٥١ / ٢٦٥ / ٢٦٩ / ٢٧٣ / ٢٨٧ / ٢٩٨ / ٣٠٠ / ٣٠٨ / ٣١٧ / ٣٦٥ / ٣٦٦ / ٣٧٢ / ٣٨٩ / ٣٩٣.

(٣٦٣) المنجد، وفيه أن الموم هو الشمع. راجع مادتى (شمع) و(موم).

(٣٦٤) سورة الحجر - الآية ٢٩.

(٣٦٥) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٦٥.

(٣٦٦) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٧١.

كلّما حاولوا بأنْ يُطفئُوني حُرّقوا بى فكان أمرى فاشى
وأضاءت بالحقّ أنوار شمسى فرأُونى بأعين الخفاش (٣٦٧)

ويقول كذلك وبنفس معنى الروح:

يا حبيبَ القلوب أشكوك منّى شغفاً فى فؤادى الموجوع
أعطشتنا الأغيار فأصْبِغ دجاها بشعاع من نور تلك الشموع (٣٦٨)

ويقول النابلسى عن نفس المعنى الرمزى الذى يقصد به الروح الإنسانى:

يا أمة العشق فزُتْم بالبصر والسمع قوموا اتركوا الفرق عنكم واقبلوا للجمع
نور الشّموع الذى يلمح عليكم لمع من حرقه القلب قد سالت دموع الشمع (٣٦٩)

ويقول:

كم صورة فى قطعة الشمع مفيدة للفرق والجمع
يظهر صانعها سُرعة فتبهر الأبصار باللمع
وتختفى ثم يرى غيرها يضحك أو يبكى بلا دمع
وكلها فانية لا ترى هناك إلا قطعة الشمع
فاعتبروا فعَلَ الوجود الذى أنتم به المنصوص فى السمع (٣٧٠)

ويقول:

ليلة القدر ليلة الجمع فى بصرى شاهد وفى شمعى
من غير فرق لدى بصائرنا بين جماد وبين ذى لمع

(٣٦٧) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٧٤.

(٣٦٨) ديوان الحقائق ج ١ ص ٣١٥.

(٣٦٩) ديوان الحقائق ج ١ ص ٣١٧.

(٣٧٠) ديوان الحقائق ج ١ ص ٣١٨.

ذا القدر ذاك الذى الضمير له ينزل من غيبه إلى الجمع
 وكل من نفسه يشاهدها فيه يرى صورة من الشمع
 حقيقة أضحت أحببتّها والغير أكته زائد الهمع
 فدمعة فى السرور باردة وفى الأسى الحركان فى الدمع (٣٧١)

(هـ) اللَّيْلُ:

الليل لفظ مفرد يُذكر ويؤنث، وجمعه الليالي بزيادة الياء على غير قياس،
 ويقال أيضاً لياليل، وقيل: الليل واحد بمعنى جمع، واحدته ليلة، مثل تمر
 وقمرة. وقيل: الليل مثل الليلة، كما يقال العشى والعشية. ومفهوم الليل فى
 اللغة من مغرب الشمس إلى طلوع الفجر، أو إلى طلوع الشمس. ويقال: الليل
 النهار، وعنهما ورد قوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ لِّمَنْ يَذَّكَّرُ فَحِوْنًا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا
 مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ (٣٧٢).

هذا وقد فضل الدين قيام الليل، وكان مما جاء عنه فى القرآن الكريم، قال
 تعالى:

﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ (٣٧٣).

وقال تعالى:

﴿أَمَنَ هُوَ قَنِيتٌ أَنَاءَ اللَّيْلِ﴾ (٣٧٤).

وقال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾ (٣٧٥).

(٣٧١) ديوان الحقائق ج ١ ص ٣١٩.

(٣٧٢) سورة الإسراء - الآية ١٢.

(٣٧٣) سورة السجدة - الآية ١٦.

(٣٧٤) سورة الزمر - الآية ٩.

(٣٧٥) سورة الفرقان - الآية ٦٤.

وجاء عن الليل فى الحديث النبوى الشريف :

«عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، فإن قيام الليل قربة إلى الله عز وجل، وتكفير للذنوب ومطرودة للداء عن الجسد، ومنهاة عن الإثم» (٣٧٦).

و«أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل» (٣٧٧).

وانطلاقاً مما تقدم عمل الصوفية على إحياء الليل بالدعاء، والذكر، والقراءة، والفكر... واستعملوا اللفظ ذاته، بمعنى رمزى يشير إلى الجد فى السير، والعزيمة الصادقة فى الإقبال على الله، وبظهور العلوم الغيبية من قلوب العارفين، وكنوا بظلام الليل عن حجاب القلب الذى هو وجود الجسم الكثيف؛ و(بالسرى) عن الأسرار، والكتم، وعدم الكشف... .

وكان مما ورد عنهم فى ذلك ما يأتى :

يقول ابن عربى:

سروا وظلام الليل أرخى سُدُولَهُ فقلتُ لها: صَبًّا، غريبًا، مُتِّمًا (٣٧٨)

ويقول النابلسى:

إِنَّ أَحِبَّابِنَا وَهَمَّ سَادَةِ الْحَيِّ
هَجَرُوا بَعْدَ وَصْلِهِمْ مُغْرَمًا عَيَّ
وَعَلَى الْبَعْدِ مُذْ لَوَى رَكْبُهُمْ لَى
لَمَعَتْ نَارُهُمْ وَقَدْ عَسَعَسَ اللَّيْلُ لُ وَمَلَّ الْحَادَى وَتَاهُ الدَّلِيلُ
جَنَّ عَقْلَى بِهِمْ إِذَا اللَّيْلُ جَنَّا
وَالْحَمَّا كُلَّمَا تَذَكَّرَ حَنَّا
لَيْتَ شَعْرَى كَيْفَ السُّلُوْ وَأَنْئَى

(٣٧٦) إحياء علوم الدين ص ٦٣٦ .

(٣٧٧) إحياء علوم الدين ص ٦٣٨ .

(٣٧٨) ذخائر الأعلام ص ٢٦ / ١٨٥ .

وفؤادى هو الفؤاد المعنى وگرامى ذاك الغرام الدخيل (٣٧٩)
ويقول ابن المبارك:

إذا ما الليلُ أظلم كابدوه فيُسفر عنهم وهم رُكوعُ
أطار الخوف نومهم فقاموا وأهل الأمن في الدنيا هجوع (٣٨٠)
ويقول سيدى الشيخ قريب الله:

وفجر الوصل يطلع بعد ليلٍ وتطلع بعده شمس الضحاء (٣٨١)
ويقول ابن الفارض:

وكل الليالى ليلة القدر إن دنتُ كما كل أيام اللقا يوم جمعة (٣٨٢)
ويقول ابن عربى:

أيا راقد الليل هُنئته فقبل الممات عمّرت القبورا (٣٨٣)
ويقول ابن عربى:

يطلع الليلُ إذا ما أسدكتُ فاحما جثلا أثيثا غيها (٣٨٤)
(و) الطيب:

للمفهوم الرمزيّ للطيب عند الصّوفية معنى يخالف سميّه عند الغواة، ذلك أنّ
قوة إيمان هؤلاء العبّاد وعزيمتهم الصادقة فى الإقبال على المولى، وجهادهم الدائم
المستمر فى التقرب إليه بالفرائض، والتحب لديه بالنوافل، جعلهم يستششقون
رائحة القرب منه، ونفحات روضة الأنس به، وعبير سر التعرف عليه، فطفقوا

(٣٧٩) ديوان الحقائق ج ٢ ص ٤٥ - ٤٦ .

(٣٨٠) إحياء علوم الدين ص ٦٤٢ .

(٣٨١) رشقات المدام ص ١٦ .

(٣٨٢) ديوان ابن الفارض بيروت ١٨٨٧م ص ٦٣ .

(٣٨٣) ذخائر الأعلام ص ٨٣ .

(٣٨٤) ذخائر الأعلام ص ١٨٥ .

يُرسلون من التعبيرات ما يشعر بسيطرة المعرفة الإلهية على كل عقولهم،
وحواسهم مع علمهم بمحدودية ما حصلوا عليه منها، أو أُنحِفُوا به من
بحارها. . .

وعن ذلك يقول سيدى النابلسي:

طابت فطيتُها تفوح بطيَّها في ورده الأكوان من منشورها (٣٨٥)

ويقول سيدى الشيخ قريب الله:

ويعبق من رياض القرب عطر بنشقة سينهض كل ناء
هو الإيمان للأرواح قُوتٌ ومعراج إلى أوج العلاء (٣٨٦)

ويقول أيضاً:

وإن فاح عَرَفَ من هناك فقد بدا لسرك معنى لا تفيدُكهُ الكتب (٣٨٧)

ويقول:

وإن شَمَّ معلولٌ روائح لطفه عدا جسمه سقم ولازمه الطب (٣٨٨)

ويقول:

ألا أوصلونا ولا * تفصلونا ألا * بشرُّونا بحسن اللحاق
ألا فادخلونا كذا * ضمَّخونا ألا * بخرونا بطيب العناق (٣٨٩)

ويقول النابلسي:

أطلق الكأس بعد طول احتباس واسقنيها ما بين ورد وآس
خمرة كأسها المتُّ قديماً وحديثاً عقلى وكل حواسى (٣٩٠)

(٣٨٥) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٥٤ .

(٣٨٦) رشقات المدام ص ١٧ .

(٣٨٧) رشقات المدام ص ٢٧ .

(٣٨٨) رشقات المدام ص ٢٨ .

(٣٨٩) رشقات المدام ص ٢٥٧ .

(٣٩٠) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٦٩ .

ويقول:

سبقت قبلنا أناس إليها غرستهم فيها أتم غراس
فتحوا باب دبرها فثمنا نفحة المسك من فم الشمس
وسكرنا براهب الدير لما هبّ منها معطر الأنفاس (٣٩١)

ويقول:

وريح المسك في الصندوق يفشو ويُعرف منه قدر الانتشاق (٣٩٢)

(ز) المنادمة:

المنادمة في الأصل المجالسة على الشراب، وحالها ضرب الأمثال وإيراد الحكايات، والأخبار، والنوادر، والأشعار بين النديمين. (٣٩٣) والنديم والنديمة هو الرفيق والصاحب، أو المنادم على الشراب، وتُجمع الكلمة على ندام، وندماء، ونُدْمان. . قالوا: وإنما أُطلق على مُشارب الخمر نديم (من الندامة)، لأنّ مُعاقر الكأس إذا سكرَ تكلم بما يندم عليه، وفعل ما يندم عليه، وقيل لمن شربه: نادمه، لأنّه فعل مثل ما فعله فهو نديم له، كما يقال جالسه فهو جليس له، والمعاقر: المذمّن، كأنه لزم عقر الشيء، أى فناءه (٣٩٤).

هذا هو معنى الكلمة في الأصل، مع ملحق ذات اللفظ من مفهوم بعد أن حرّم الإسلام الخمر، علماً بأن القرآن الكريم أشار لمعنى المنادمة لا للفظها في عدد من الآيات، كان منها قوله تعالى:

﴿ وَمَا تَجْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ ﴾ ٣٩١ ﴿الْأَعْبَادَ لِلَّهِ الْمُخْلِصِينَ ۖ﴾ ٤١ ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ۖ﴾ ٤١ ﴿فَوَاكِهَ ۖ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ۚ﴾ ٤٢ ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۖ﴾ ٤٣ ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ۖ﴾ ٤٤ ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ

(٣٩١) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٧٠.

(٣٩٢) ديوان الحقائق ج ١ ص ٣٤٢.

(٣٩٣) ذخائر الأعلام ص ٨٢.

(٣٩٤) المنجد، والعقد الفريد ج ٨ ص ٥٣.

مَعِينٌ ﴿٤٥﴾ يَصْصَاءُ لَذَّةَ الشَّرْبِ لَئِنْ لَمْ يَنْزِفُوا مِنْهُمْ لَذَّةَ الْمُنَى أَذْهَبْتُمْ مِنْهُمْ قُرْبَنَهُمْ فَانْقَبَضُوا عَنْهُمْ ﴿٤٦﴾ وَذَرْوَاهُمْ لِمَنِ أَنْهَى الْأَمْرَ لِيُؤْخَذَ مِنْهُمْ أَجْرٌ خَافَ سَبْأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَائِهِ رَبِّهِمْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ نَزْلَةَ الْمَائِدَةِ عَنْكُمْ فَيُفْضِلَ عَلَيْهَا حَبْلًا مِنْ قَنَاطِيرٍ الْأَمْبِ ﴿٤٧﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصْرٌ مَقْرُونٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُمْ بِيضٌ مَكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَتِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٣٩٥﴾

وقوله تعالى:

﴿ إِنَّا الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَتَكْبِهِينَ يَمَاءً أَنَّهُمْ رُبُّهُمْ وَوَقَفَهُم رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَكِبِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مَّيْشَنُونَ ﴿٢٢﴾ يَنْتَرِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوُ فِيهَا وَلَا تَأْنِيَةٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (٣٩٦).

انطلاقاً مما تقدم من مفهوم للمنادمة على الخمرة المحرمة في الدنيا، والمشوق لسميتها في الآخرة، عمل الصوفية على استخدام معنى ولفظ المنادمة، بعد أن أضفوا على اللفظ معنى طاهراً، وبيئة صالحة تشبه تلك التي أشار إليها القرآن الكريم في آياته المذكورة أعلاه.

وكان مما ورد عنهم في معنى التديم بمعنى السالك والمصاحب مايلي:

يقول النابلسي:

يا نديمي بحانة الغيب إن الغيب	ب كالعين لم يزل نضاً خا
فاملاً الكأس لي ولا تترّمْ	بموى من به السوى فيه ساخا
وأتى أمره إلى بروح	قام في زمر نشأتى نفاخا
وأنا اليوم عنده في مقام	مطرب كل من إليه أصاخا (٣٩٧)

(٣٩٥) سورة الصافات - الآيات من ٣٩ - ٥٢.

(٣٩٦) سورة الطور - الآيات من ١٧ - ٢٥.

(٣٩٧) ديوان الحقائق ج ١ ص ١٣٦.

ويقول:

اسقنى من مُدامة القدّوس وأدرّها علىّ بين النّدامى
صرف راح بشربهاكم أميتت بكر دنّ عبيقة قد أعادت
قام يعنى بها المليح علينا فخرجنا بنشأة الكر منها
فهى ملء الدّنان ملء الكئوس من قيام بسكرها وجلوس
من نفوس وأحييت من نفوس بالتدابير عهد (جالينوس)
ذو محياّ يفوق ضوء الشموس عن جميع المعقول والمحسوس (٣٩٨)

ويقول النابلسي أيضاً:

عندى جميع الخلق عين الأمر والحب فيه طاب طول العمر
مذ راق فى الكاسات صرف الخمر فافخر به فى موكب العشاق (٣٩٩)
ويقول:

لو تجلى عن ناظريك الغبار وتبدّت فريدة الحسن تجلى
ورأيت الهدى وأرشدك الدّ فاجتهد واقصد الحقيقة واطلب
وتذلّل بباب ديرك واخضع لرأيت الكئوس كيف تُدار
زائلات عن وجهها الأستار فآ وصوت الغناء والمزمار
ولتكن فيك همّة واصطبار فعسى أن يُريدك الخمار (٤٠٠)

ويقول:

قُم بنا نشرب كاسات الوصال بين أنواع جمالٍ وجلال

(٣٩٨) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٧١ .

(٣٩٩) ديوان الحقائق ج ١ ص ٣٤٦ .

(٤٠٠) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٠٣ .

كم رقود تحت أستار الخيال
عاذلى بالله خلّ الالتباس
وتناول لى من يد المحبوب كاس

لاحت الشمس اختفى ضوء الشموع
واخلع الأكوان وانزع ذا اللباس
خمرة الأرواح بل برق لموع (٤٠١)

ويقول:

أزل نومي بشدوك يا نديى
وحى على المنى يا بن المعانى
وخذ منى وناولنى إلى أن
هنالك تضمحل به رسومى

وأبدل لى خلاfk بالوفاق
ولا تفتن بألفاظ رقاق
ترانى قد وصلت إلى التراقى
وأذهب بانسحاق وانمحاق (٤٠٢)

ويقول:

سقانى الكاس من نفسى
فكرى كان عن حى
وقد أخرجت من حبسى

وفيه خمرة الأرواح
وعن عقلى وعمّا الاح
إلى إطلاق ساقى الراح (٤٠٣)

ويقول:

أسقنى ندامى من كأسى وأشرب ما
فكنت آخرهم شرباً وأولهم
هذا المدام وهذا الكأس ممتلىئ
إن الكرام بحسن الظن قد شربوا

أبقوه فى الكأس لى من خمري الباقي
سكراً بما تركوا من بهجة الساقى
من المدام إلى أطراف أطواقى
وسوء ظنك حرمان لرقراق (٤٠٤)

(٤٠١) ديوان الحقائق ج ١ ص ٣٠٩.

(٤٠٢) ديوان الحقائق ج ١ ص ٣٤٢.

(٤٠٣) ديوان الحقائق ج ١ ص ٣٤٤.

(٤٠٤) ديوان الحقائق ج ١ ص ٣٥٣.

ويقول:

ساقى ياساقى * اسقنى من خمره الباقي * واكشف لى عن قيد إطلاقى
افتح باب الحان * واسمعى من طيب الألحان * وارشفنى من كأسى الملائن
فى دور الكاسات * قد غابت إخوانى السادات * والخمار محمود العادات
من يشرب يكر * من خمرى لما يتفكر * والمغرور فى علمه أنكر
لا يعرف أمرى * إلا من يشرب من خمرى * أحشاؤه تصلى فى جمرى^(٤٠٥)

ويقول النابلسى:

قم بنا يا نديم * إنَّ خمرى قديم * كأسه تستديم
لطف عيشى بذاك * ومنأى هناك^(٤٠٦)

ويقول:

قم بنا إلى الندمان * فى الحان يا صاح * ندرك الصفا بالراح
واستمع من العيدان * ألحان أقداح * لى أتت بها الأفراح
طاب لى بها كأسى * لان قلبها القاسى^(٤٠٧)

ويقول:

خُذْ ندى أطوار نفسك ممن طاب فيه الشراب من كاساتك
وأدرهاً عليك منك وعربد مع ذاك الحبيب فى خلواتك^(٤٠٨)

(٤٠٥) ديوان الحقائق ج ١ ص ٣٦٠ .

(٤٠٦) ديوان الحقائق ج ٢ ص ٥ .

(٤٠٧) ديوان الحقائق ج ٢ ص ٦ .

(٤٠٨) ديوان الحقائق ج ٢ ص ٧ .

ويقول:

خذ الكأس مني يا بن ودّي فإنّه
وملّ طرباً في النشأتين بشربه
شراب طهور في كئوس نظيفة
على رنة الأسماء دام مدامنا
وفي مقعد الصدق العزيز مناله

روى بهذا فليكن عندك الحزم
فإن شرابي للضلال به هضم
كريم به الساقى ومنه العطا الجمّ
وإن نَمَقَ الزور الوشاة وإن نَمّوا
تجلّت لنا ذات وفعل بدا وأسم (٤٠٩)

ويقول النابلسي:

خليلى قوما بنا للحمى
وعوجاً على سفح ذاك اللوى
فإننى مشوق كثير الجوى

عسانا نرى الرشأ الأهيفاً
وإن جئتما دار سلمى قفا
عسى الحب بالوصل أن يعطفا (٤١٠)

ويقول:

قم للمدام أخا الغرا
واكرع حمياً القدس من
واشرب معى بيد المدي
وادخل كنيسة دهرها
متجرّداً عن كل ما
واسكر بها مع كل شماً
واسمع مثانيك التى

م وطف بنا فى كلّ حان
صور البريّة فى قنانى
ر فحبّذا أيدي الحسان
واعكف على بنت الدنان
يلهيك عن هاتيك فانى
س يميل كغصن بـان
تُتلى على صوت المثانى (٤١١)

(٤٠٩) ديوان الحقائق ج ٢ ص ٨٨.

(٤١٠) ديوان الحقائق ج ١ ص ٣٢٧.

(٤١١) ديوان الحقائق ج ٢ ص ١٢٣.

ويقول سيدى الشيخ قريب الله:

قم يا نديم إلى الأحبة واسقنى
واجل الفؤاد من الصدا بعصابة
ويقول السهروردي:

قم يا نديم إلى المدام فهاتها
من كرم إكرام بدن ديانة
ويقول سيدى النابلسي:

يا طلعة الساقى
يزهو بإشراق
خمري هنا باق
فاسكر به يا صاح
من جانب الأكواب
فى حضرة الديان
يُجلى على الندمان
أحوال مبصوره (٤١٤)

ويقول:

قم لصافى الكئوس وأنشق شذاها
هذه حضرة المنى والتّهانى
ويقول:

أيها الركب هذه دار سلمى
واسمعوا من فمن الوجود كلاماً
واشربوها عتيقة جدّوها
فأنزلوها ماخاب فيها النّزيل
لا اغوجاج به ولا تحويل
بكئوس مزاجها زنجبيل

(٤١٢) رشفات المدام ص ٢٦٤.

(٤١٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٢ ص ٣٩٠.

(٤١٤) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٥٠.

(٤١٥) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٧٢.

هى سلمى وكلهم طالبوها
ظهرت بالقدود منعطفات
وإليها كل القلوب تميل
وبوجهه كأته قنديل (٤١٦)

ويقول النابلسى:

مدام بها الأفراح دامت لأهلها
وقام بها الساقى وحى فساقنا
إذا ما تراءت فى الكئوس بدالها
هى السر للأشياء والجهر دائماً
ألا حى يا صاحى على سكرة بها
وشقق بها الأثواب عنك وكن بها
إذا ما شربناها خفينا بنورها
ومن لم يذقها كل أوقاته غم
إلى موردٍ منها لذيد به الطعم
شعاع له فى كل ناحية نجم
على عدد الأنفاس والبدء والختم
ودع عنك مَنْ هُم دونها عندهم وهُم
مجرد عزم لا يقاس به عزم
وعند طلوع الشمس ماللدجى رسم (٤١٧)

ويقول النابلسى:

قديمة عهد والحدوث حجابها
هى الكرم والعنقود والعاصِرُ الذى
هى الحان والكاسات والطاس والطلا
هى القوم والساقى ومجلسنا على
فإن شئت فاشربها من الكل أو فخذ
غدونا لها ظهراً فصارت لنا بطنا
له انتبت أيضاً وبائعها غبنا
ودن الحمى والذى صنع الدننا
يمين الحمى الشرقى والروضة الغننا
من البعض كأساطعمه العذب ما أهنى (٤١٨)

ويقول غيره:

فكيف توانى الخلقُ عنك وقد بدا
جمال به قد هامت الألبابُ

(٤١٦) ديوان الحقائق ج ٢ ص ٢٠.

(٤١٧) ديوان الحقائق ج ٢ ص ٨٦ / ٨٧.

(٤١٨) ديوان الحقائق ج ٢ ص ١٢٠.

فبعضهم أهدي وبعضهم ارتدى وهأنت كاس بل وأنت شراب (٤١٩)
ويقول:

فادخلوا يا قوم روضي إنني في مقام فائح منه الشذاً
واشربوه كأس خمر من يدي وارضعوه لبناً من ذا الثدي (٤٢٠)
ويقول الرقاشي:

نبهت ندماني الموفى بذمته من بعد أتعاب كاسات وأقداح
فقلت: قم واسقني واشرب وغنّ لنا يا دار مشوّأ بالقاعين فالساح
فما حساً ثانياً أو بعض ثالثة حتى استدار ورد الراح بالراح (٤٢١)

(ج) الطعام والشراب:

الطعام مصدر، جمعه: أطعمة، وجمع الجمع: أطعمات، وهو في الأصل ما يؤكل، ومعنى أكل الطعام: تناوله وبلعه بعد مضغه، أمّا الشراب فهو كل ما يشرب أو يُجرع أو يُروى منه، وتصريفه شرب يشرب شرباً وشرباً وشرباً ومُشرباً وتشرباً... (٤٢٢) وبهذا المعنى المذكور للطعام والأكل والشراب، جاء قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤٢٣).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعَمُنِي وَيَسْقِينِي﴾ (٤٢٤).

هذا وقد استعمل الصوفية ألفاظ الطعام والأكل والشراب وما يماثلها في معنى رمزي مفاده الزاد أو التقوى؛ وهو معنى قرآني وردت الإشارة إليه في قوله

(٤١٩) قاموس الأناسيد ص ٣٠ / ٣١.

(٤٢٠) ديوان الحقائق ج ٢ ص ٢٣٢.

(٤٢١) شرح ديوان ابن الفارض جمع رشيد المجنى ج ٢ ص ١٩٤.

(٤٢٢) المنجد.

(٤٢٣) سورة الطور - الآية ١٩ - والمرسلات - الآية ٤٣

(٤٢٤) سورة الشعراء - الآية ٧٩.

تعالى: ﴿وَتَكَزَّوْذُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَى﴾ (٤٢٥).

وَوَقَّ هَذَا الْمَفْهُومَ الرَّمْزِيَّ وَرَدَ مَا يَأْتِي:

يقول النابلسي:

وماء شربناه، ولحمًا وخبزة أكلناه، واندارتُ بذاك ضروس (٤٢٦)

ويقول غيره:

أترضى أن تكون رفيق قوم لهم زاد وأنت بغير زاد (٤٢٧)

ويقول النابلسي:

روح تغذت بتقوى الله طيبة قوية ولها الرحمن حراس
وجثة نبتت مما يحل لها من المأكَل ما فى ضعفها باس
اجعل طعامك من غير الحرام على مقدار علمك واترك ما به الباس (٤٢٨)

ويقول سيدى الشيخ قريب الله:

يزينك ما تنال من التلقى موائد من صلاتِ الأنبياء (٤٢٩)

ويقول:

وإن رمقتك العين يوماً من العلا فقد طاب فى ماء الحياة لك الشرب
وطاب لك العيش الرغيد فعش به فجهلك لاجهل، وذنبك لا ذنب (٤٣٠)

(٤٢٥) سورة البقرة ١٩٧.

(٤٢٦) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٦٣.

(٤٢٧) رشفات المدام حرف الدال.

(٤٢٨) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٦٤.

(٤٢٩) رشفات المدام ص ١٧.

(٤٣٠) رشفات المدام ص ٢٨.

ويقول:

تزودّ قرينًا من فعالك إنما قرينُ الفتى في القبر ما كان يعملُ (٤٣١)

ويقول غيره:

أنا نقلى ومدامى ذكرُكم كلما كررته يستعذبُ (٤٣٢)

آداب الشراب:

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: أتانا رسول الله ﷺ في دارنا فاستقى، فحلبنا له شاةً ثم شربه من ماء بثرى هذه؛ قال: فأعطيتُ رسول الله ﷺ، فشرب رسول الله ﷺ وأبو بكر عن يساره، وعمر رضى الله عنه وجاهه، وأعرابى عن يمينه؛ فلما فرغ رسول الله ﷺ من شربه قال عمر: هذا أبو بكر يارسول الله - يريه إياه - فأعطى رسول الله ﷺ الأعرابى وترك أبا بكر وعمر؛ وقال رسول الله ﷺ: الأيمنون الأيمنون الأيمنون - قال أنس: فهى سنة، فهى سنة، فهى سنة (٤٣٣).

هذا وقد استعمل الصوفية لفظ (اليمن) لابعناه الحسى، ولكن بمعنى رمزى يُفيد الصراط المستقيم، والنهج الأمثل القويم، مستأنسين فى ذلك بما ورد من قوله تعالى:

﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ (٤٣٤).

يقول المفسرون وتسميتهم بأصحاب الميمنة، إمّا لكونهم من جملة من كتبهم بأيمانهم، وإمّا لكون اليمين يُراد به الدليل على الخير (٤٣٥).

(٤٣١) رشقات المدام حرف اللام.

(٤٣٢) قاموس الأناشيد ص ٢٦٧.

(٤٣٣) صحيح مسلم ج ٤ ص ٨١.

(٤٣٤) سورة الواقعة - الآية ٨.

(٤٣٥) الضير الكبير ج ٢٩ ص ١٤٢.

وعن قوله تعالى:

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ (٤٣٦).

يقول المفسرون: المراد بهم أصحاب القوة، أو أصحاب النور، أو مَنْ يأخذون
بإيمانهم كتبهم (٤٣٧).

وانطلاقاً مما تقدّم ورد ما يأتي:

يقول النابلسي:

شربت كأساً ثم ناولته مَنْ عَنْ يَمِينِي فَضْلَةُ الْكَاسِ
فإنّ حساها فَبِصْدَقٍ لَهُ وإن تقايا فَبَوْ سَوَاسِ
هنالك الشيطان يلوى بهم عن خمرتي والكأس والطاس (٤٣٨)

هذا والمعنى الرمزي لما تقدّم، يُفيد أنّ الصوفي وقد جُبِلَتْ نفسه على المحبة
للمولى، أراد لمن ساروا على الصراط المستقيم من أصحاب النور، وأهل النهج
الأمثل أن يَصْدُقُوا في إقبالهم على الله لتبقى المحبة في قلوبهم راسخة، حيث
إنّه بالصدق لاغيره يُجَانِبُونَ طريق الشيطان، ويسْمُونَ عن وسوسته.

* * *

(٤٣٦) سورة الواقعة الآية ٢٧.

(٤٣٧) التفسير الكبير ج ٢٩ ص ١٦٢.

(٤٣٨) ديوان الحقائق ج ١ ص ٢٧١.

obeikandi.com

خاتمة

هذا، وفي ختام هذا الكتاب نرجو أن نكون قد وفَّيناهُ حقه - أو بعض حقه - ونرجو من الله العلى القدير أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يتولانا جميعاً بالهداية، والعناية، والرعاية، والأعمال الصالحة، والأخلاق النبيلة، إنه نعم المولى ونعم النصير.

* * *